الأسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس

اهداءات ٢٠٠١

محمود ديابه

بالمستشفى الملكي المصري

عمر محمد الباروني

الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس

بسم الله الرحمن الرحيم

— الفصل الاول —

الاسبان في طرابلس

الاسبان بعد خروج العرب من الاندلس

كان لخروج العرب من الاندلس والقضاء على الدويلات العربية فيها اثر كبير فى ازدياد الروح الوطنية بين الاسبان وشعورهم بالاندفاع وراء هذا الانتصار والمغالاة فى الشعور الدينى والقومى، وهذا طبيعى ، فالضعيف المغلوب على امره اذا ما صادفته فرصة وتغلب على غريمه القوى الذى خضع لنفوذه حقبة من الزمن فان انتقامه منه يكون شديدا وملاحقته لتسديد الضربة النهائية تكون اشد ، وتشفيه من العدو يكون اعنف ، هذه ولا شك ظاهرة طبيعية وغريزة متأصلة فى بنى الانسان ولذلك لم يكتف الاسبان بطرد العرب من جزيرتهم الجميلة بل احبوا ان يلاحقوا العرب حتى فيما وراء حدود بلادهم بعد ان اكسبها العرب طابعا شرقيا اسلاميا واسبغوا عليها روائع الفنون العربية الاسلامية ، وكان الاسبانيون متاثرين

فى الغالب بالروح الدينية التى كانت متقدة فى اسبانيا على اثر خروج العرب منها ، بفعل نشاط الكنيسة الكاثوليكية ونفوذ الكرادلة ورجال الدين لدى الملك فرديناند ملك اراجون وايزابيلا ملكة قشتالة .

اكتشاف امريكا والطريق الى الهند

ولقد زاد شعور الاسبان بالقوة والسيادة والنفوذ اكتشافهم لامريكا سنة ١٤٩٢ م. ونشأة اولى المستعمرات لهم هناك وتوصلهم الى معرفة الطريق البحرية الى الهند الشرقية بالمحاولات التى قام بها فاسكو دى جاما (Vasco di Gama) سنة ١٤٩٧ م. وفى نفس الوقت لم يكن لاسبانيا غريم قوى ينازعها السيطرة ويقاسمها النفوذ ويحد من شدة تكالب الاسبانيين على الفتح والاستعمار والاستكشاف بالاخص فى الحوض الغربى من البحر الابيض المتوسط واوربا الغربية والجنوبية وذلك لان الاسبان ورثوا الحضارة العربية التى كانت قائمة فى بلادهم ، وخبروا فنون الملاحة البحرية وعرفوا الاصقاع والامصار واتقنوا التكتيك الحربى بعملهم

فى السفن العربية التى كانت تسافر من اسبانيا للتجارة او للغزو ولتطوعهم كجنود مرتزقة فى الجيوش العربية ولتمرنهم الطويل على صناعة الاسلحة فى المصانع العربية

تغلب الروح الدينية على الاسبان

هذا وتتسم اغلب الحملات الاسبانية بالاخص فى الشمال الافريقى ، بالسمة الصليبية ، ولم يكن الغرض منها التوسع الاقليمى وامتداد النفوذ السياسى فحسب ، وانما كان الغرض منها موجها الى التبشير لدين المسيح ومحاولة نشر ديانته فى البلدان التى يضع الاسبان عليها ايديهم ، ولم تكن لهم سياسة معينة فى البلدان التى يفتحونها عدا سياسة نشر الدين المسيحى ومحاربة الاديان الاخرى بجميع الوسائل اعتقادا منهم ان فى ذلك ما يوطد دعائم ملكهم ويبعدهم عن التعرض للانقلابات والثورات .

سياسة الاسبانيين

وقد تنفع مثل هذه السياسة فى بلدان لا تعرف دينا سماويا من قبل وقد تفيد فى بعض الجهات التى يدين اصحابها بدين

الوثنيـة ، ولكنهـا ليسـت سياسـة رشيدة ولن يكتب لهـا حياة واستمـرار فى بـلاد كالشمـال الافريقى ، اعتنق اهلهـا دين محمد صلى الله عليـه وسلـم ، ويمكننـا ان نلخـص السياسة الاسبانية بعد خـروج العـرب من الانـدلس بانهـا سيـاسة التمسيح بالحديـد والنـار والنفى والتشـريد ، ولهـذا السبـب لم تستقـر طويلا فى ايديهم البلـدان التى فتحـوها وبالاخـص فى الشمال الافريقـى ، ولهـذا ايضـا كانـت الثورات والانقلابات عليهـم فى كل من طـرابلس وجـربة وتـونس ووهـران وبجاية وغيـرها لا من عامة الشعب فقط بل حتى من اولئك الاشخـاص الذين كانوا يتجسسون لهـم على حسـاب اخـوانهم وذويهـم وكانوا يساعدونهم على احتلال بلادهم وقتل او تاسيـر ملـوكهـم واشـرافهـم .

الدوافع الاخرى لاحتلال الشمال الافريقى

ومن جهـة ثـانية فقـد اندفع الاسبـان الى احتـلال قواعد فى الشمـال الافـريقى للاقتـراب من الحوض الشرقى من البحـر الابيـض المتـوسط وامتـلاك الموانىء والاسواق فيـه لاحتكار

تجارة المعادن النفيسة والتوابل التى ترد اليها عن طريق القوافل البرية او عن طريق البحر الاحمر من جنوب آسيا ولمزاحمة البندقيين والجنويز الذين استغلوا اسواق الشرق الادنى مدة طويلة واحتكروا اسواق أوروبا ببضائع الشرق وعلى الرغم من ان الاسبان توصلوا الى معرفة طريق الهند بحرا من افريقيا الغربية فمدينة الكاب فالمحيط الهندى فان البندقيين كانت بيدهم تجارة آسيا وافريقيا ولم يكن فى مقدور الاسبان منافستهم .

حركة الاتراك فى الشرق

وفى هذه الفترة كان الاتراك العثمانيون يوسعون ممتلكاتهم ويتقدمون فى اوروبا بعد فتحهم للقسطنطينية سنة ١٤٥٣ م بخطوات ثابتة وكانوا يسيطرون على الحوض الشرقى من البحر الابيض المتوسط ، وهم ايضا كانوا يبشرون للدين الاسلامى فى اوروبا ويحاولون فتح آفاق جديدة له واكتساب معتنقين جدد يدينون به حتى يوطدوا نفوذهم السياسى وسلطتهم الزمنية

ولم يعرف العرب بعد خروجهم من اسبانيا وتنازل العباسيين عن الخلافة للعثمانيين كيف يوحدون صفوفهم ويكونون دولة قوية تستطيع ان تلعب دورا ازاء هذه الاحداث ولم يوفقوا الى رسم سياسة تجمع كلمتهم وتلم شتاتهم قبل ان تطغى عليهم الموجات الاجنبية من اسبانية فى الغرب وتركية العثمانية فى الشرق بل كانوا فى دهشة من اصيب بضربة قاضية ففتح عينيه مأخوذا لينظر ما مافعل به ، لم تكن للعرب سياسة ثابتة يتمشون عليها ليصلحوا ما فات ولينقذوا ما يمكن انقاذه ولم يكن فى وسعهم التحالف مع الاسبان لان الاسبانيين يدعون الى دين المسيح علانية ويبشرون له بل ويرغمون الناس على اعتناقه ولم يكن من اليسير عليهم التحالف مع العثمانيين ضد الاسبان او غير الاسبان فى بادىء الامر لانهم كانوا يرون ان الاتراك هم الذين سلبوهم عروشهم ونزعوا من اياديهم الخلافة وقد جر هذا التفكك بين العرب الى قيام دويلات صغيرة فقيرة فى الشمال الافريقى كله .

الانقسام بين العرب وتحكم المشائخ والقضاة

وكثيرا ما رفعوا السلاح ضد بعضهم فنحروا انفسهم واوسعوا المجال امام اعدائهم الطبيعيين الذين وجدوا ميدانا واسعا وفرصة سانحة لاخضاعهم جميعا والتغلب عليهم دون مشقة او عناء . وازداد في هذا الدور نفوذ الشيوخ والقضاة على مدنهم وقراهم وقبائلهم فقطعوا صلاتهم بعاصمة بلادهم وامتنعوا عن الاعتراف بملك يؤدون اليه الخراج ويدينون له بالطاعةوساد عهد شبيه بالعهد الاقطاعي في اوروبا بل اشد منه حلكة واستبدادا واستفحلت النعرة القبلية بدلا من الروح الوطنية الصادقة ، وكثيرا ما تنشب الحروب الطاحنة بين القبيلتين المتجاورتين لاتفه الاسباب ، وكثيرا ما يتقاتل الاخوان لابسط خلاف .

الحالة السياسية العامة في الشمال الافريقي

وهكذا قامت في الجزائر مملكة محمد الثابتي قضى عليها الاسبان سنة ١٥٠٥ م وكانت قسطنطينة وتونس وجربة في ايدي الحفصيين الذين لم يعد لهم حول ولا قوةو لم تكن

الاحوال فى طرابلس احسن بل كانت اشد واقسا فى الفترة التى سبقت الاحتلال الاسبانى .

الحفصيون فى طرابلس

كانت طرابلس قبل سنة ١٤٦٠ م تابعة للحفصيين يديرون شئونها بواسطة وال يعينه السلطان الحفصى وكل ما يهم هذا الوالى الحفصى هو جمع الخراج وتجنيد الرجال اذا ما اضطر الحفصيون الى الحرب ، وبقى الطرابلسيون خاضعين لنفوذ الحفصيين ولم يجدوا سبيلا للخروج عنهم واعلان التمرد عليهم حتى جاءت سنة ١٤٦٠ م ففى هذه السنة زفت ابنة سامى شريف احدى النبيلات الثريات فى طرابلس الى ابن مصطفى بن احمد ، احد التجار الكبار الطرابلسيين وهو ايضا صاحب نفوذ ومال كثير ، واحتفلت طرابلس بزفاف العروسين احتفالا كبيرا لم يسجل التاريخ مثله فى طرابلس من قبل ، ولم يدم هذا الفرح والابتهاج طويلا فقد رد العريس زوجته الى بيت ابيها غداة دخوله بها بدعوى انها ليست بكرا . وهذا التصرف من قبل الزوج جر البلاد كلها الى فتنة

اشتعلت نيرانها فى كل الشوارع وبين كل البيوت ، فقد ثار افراد عائلة العروس وقاموا يدافعون عن شرفهم وسمعة عائلتهم وانقسمت البلاد الى طائفتين تحزبت كل طائفة لاحدى العائلتين ورفع سكان طرابلس السلاح ضد بعضهم وتكبد الطرفان خسائر جسيمة فى الارواح ومن بين المقتولين كانت العروس المنكودة . وكان هذا هو مبدأ الاضطرابات والقلاقل وتطورت الى طرد الوالى التونسى من طرابلس ورفع نفوذ الحفصيين عنها ، وبايع الناس فى الجامع الكبير سيدى منصور من اعيان طرابلس لسعيه فى اخماد الفتنة بين الصفين المتقاتلين وتهدئة الخواطر ورفع الضغائن بين مواطنيه ، إعترافا له بجميل مسعاه ، وكانت مبايعة سيدى منصور على اثر خطبة القاها خطيب الجامع الكبير(١) الشيخ عبد الحميد دعا فيها الناس الى مبايعة سيدى منصور واقسم الخطيب اليمين على طاعته وامتثال اوامره وكان هذا كاعتراف رسمى بتولية سيدى المنصور ، وعندما بلغ هذا الخبر الى قبائل غريان وبنى وليد وترهونة ومسلاتة ومصراتةوتاجوراء وزوارة ارسلت الىسيدىالمنصور بالبيعة والتهانى

(١) يعتقد انه كان يقع حيث جامع احمد باشا القرەمانلى الان

وغضب سيدى ابو عمر ملك تونس الحفصى على طرابلس لانتقاضها عليه وطردها لعامله واخذ يستعد لتمكين نفوذه ثانية على طرابلس ، واستعد سيدى المنصور ايضا فجهز جيشا مؤلفا من خمسة آلاف من المشاة وثلاثة آلاف من الفرسان للدفاع عن استقلال بلاده وابعادها عن دائرة نفوذ الحفصيين . وعندما تقدم الجيش التونسى لاحتلال زوارة كان الجيش الطرابلسى فى الميدان مستعدا للقتال وجرت بين الجيشين معركة دامية خسر فيها التونسيون ثلاثة آلاف رجل فارتدوا الى قواعدهم ، وصعب على الملك الحفصى ان يرضى بهذه الهزيمة من الطرابلسيين ، فحاول فى السنة التالية احتلال طرابلس ولكن لم يكن نصيبه فى هذه المرة احسن من نصيبه فى المرة الاولى فهزم جيشه من جديد وتشتت ورجعت البقية الباقية منه .

الا ان العداء بين الشقيقتين لم يدم طويلا اذ استؤنفت العلاقات التجارية ورجعت المياه الى مجاريها وزال الخلاف وهدأت الخواطر ولم يفكر الحفصيون من بعد فى الاستيلاء على طرابلس بل رضوا بالامر الواقع .

وقد روى تاريخ هذه الفترة نيكولا دى نيكولى (Nicolas

سفير فرنسا (D'Aramount) سكرتيردارامون (de Nicolay لدى البلاط العثمانى فى كتابه المسمى (Navigationi et Viaggi).

وذكر نيكولا فى مذكراته ان نهاية سيدى منصور كانت مؤلمة ، اذ انه بعد ما استقرت به الحال ووطد قدمه فى الحكم عاد فغير سياسته الاولى الطيبة وما لبث ان صار جبارا ظلوما وهذا ما دعا احد افراد عائلته الى قتله . وبايع سكان طرابلس بعد مقتل سيدى منصور رجلا غنيا يدعى يوسف حكم تسع سنوات مات بعدها - بالطاعون سنة ١٤٨٠ م .

حكومة الشيخ عبد الله

(وخلف يوسف المذكور فى الحكم على طرابلس مامى الذى توفى سنة ١٤٩٢ م ثم ولى سيدى عبدالله بن شرف باجماع الشعب، وكان يلقب سيدى عبد الله بالمرابط (الولى الصالح) لصلاحه وتقواه وتعبده واكثاره من الصلاة والاعتكاف . وكان الشيخ عبد الله رجلا عادلا مستقيما فى اموره مع الناس جميعا ، وكانت علاقته مع جاره ملك تونس طيبة كما كانت سياسته مع الملوك

المسيحيين الذين لهم علاقات تجارية مع بلاده فيها كثير من التساهل واللين .

ولم يهتم الشيخ عبد الله بتحصين طرابلس وتقوية ابراجها واسوارها وقصرها عند توليه الحكم حتى لا تتجه اليه انظار الدول الاجنبية وحتى لا يطمحوا فى الاستيلاء على طرابلس ، اضف الى ذلك ان الشيخ عبد الله لم يكن له الاستعداد اللازم للقيام بمثل هذا المجهود الجبار من حشد الرجال والعمال وجمع المال الكافى لاعمال البناء والترميم والتحصين ورفع القلاع التى يمكن ان تصمد امام ضربات مدفعية اسطول قوى . وان استطاع سيدى عبد الله ان يحشد الرجال والعمال فانه لا يستطيع ان يجد فى خزائن الدولة مالا قليلا او كثيرا ، لان نظام الجباية لم يكن عاما على جميع البلاد الطرابلسية والمشائخ فى الجبل والجفارة وبنى وليد ومصراتة مستقلون بجهاتهم تمام الاستقلال لا يؤدون للدولة المركزية ما وجب عليهم من خراج .

والواقع ان ايام سيدى الشيخ عبد الله لم تكن اياما لامعة فى تاريخ طرابلس على الرغم من صلاحه وتقواه وحبه للعدل ، ويظهر ان حب الشعب له ودعوته باسمه

ورغبته فيه يرجع الى عدم مطالبته الشعب بالخراج الكبير وتساهله مع الناس فى امور الجباية وعدم فرض الضرائب العادية أو الضرائب غير العادية لانعاش الجيش الطرابلسى وتقوية الاسوار والحصون للدفاع عن المدينة اذا ما تعرضت لغزو مسلح من الخارج ولاخضاع سكان الدواخل المتمردين لدفع الخراج أو لبناء اسطول تجارى او حربى يرجع لطرابلس مكانتها ويساعد على ترويج البضائع المحلية وتجارة الوساطة (الترانسيت) فى اقطار اوربا والشرق العربى .

ولهذا فقدت طرابلس مكانتها المرموقة كمركز استراتيجى يشرف على الحوضين الشرقى والغربى من البحر الابيض المتوسط كما فقدت اسواقها شهرتها القديمة واستحلت الازمة الاقتصادية الى جانب ضياع النفوذ السياسى ، واضطر التجار الى استخدام السفن البندقية والصقلية والجنوية والاسبانية لتصدير البضائع الاتية من برنو وكنو وانواع المنتوجات المحلية.

ولنعرف حالة طرابلس من الناحية العمرانية قبل الغزو الاسبانى يجب ان نستعرض ما ذكره المؤرخون والرحالون الذين جاءوا الى طرابلس .

البـــكـرى

ويقـول ابو عبيـد عبد الله البكـرى الـذى قام بـرحلـة فى القـرن الحادى عشر الميلادى فى معرض كلامه على طرابلس: وعلى مدينة طرابلس سور صخر جليل البنيان وهى على شاطىء البحـر ومبنى جـامعهـا احسن مبنى ولهـا اسواق حافلـة جامعـة وحمامات كثيـرة فاضلـة ومرساها مامون من اكثـر الرياح ويقول البكرى فى موضع آخر: « ومدينة طرابلس كثيرة الثمار والخيـرات ولهـا بسـاتين جليـلة فى شـرقيها ويتصـل بالمـدينة سبخـة كبيـرة يرفـع منهـا الملح الكثيـر وداخـل مدينتهـا بئـر يعـرف ببئـر ابى الكنود ويعيـرون به ، ويحمـق من شرب منـه فيـقال للـرجل اذا اتى بما لا يلام : لا يعتب عليك لانـك شـربت من بئـر ابى الكنـود « انتهى كلام البكـرى »

ويلاحظ ان زيارة البكـرى لطرابلس كانت منذ اربعة قـرون تقـريبا قبل الغـزو الاسبانى .

الـرحالة التيجـانى

وجاء الى طـرابلس فى القـرن الرابع عشـر ميـلادى الـرحالة

والظاهر ان الطارمة(١)كانت في نفس القصر على الرغم من انه ليست لدينا حجج كافية تثبت صحة ما ذهبنا اليه . على اننا لا نعرف متى بني قصر طرابلس ولا في اى عهد رفعت قواعده ، فربما يرجع بناؤه الى العهد الروماني ، ولم يعثر في القصر اثناء اعمال الحفريات التي اجريت به على شيء يمكن ان يؤخذ كوثيقة على وجود هذا القصر في العهد الروماني ومن الثابت وجود القصر في العهد الاسلامي وان كنا لا نعرف متى بني ومن بناه وقد تحمل فيه عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب حصارا شديدا من طرف العساكر الذين لم يتركوا حصاره الا بشرط ان يبتعد عن المدينة.

ويتكلم المؤرخون عن قصر طرابلس بمناسبة حادثة اخرى ذات اهمية خاصة بطرابلس وهي طرد الحامية النرماندية؛ التي استقرت في البلاد سنة ١١٤٦ م. بعد الغزو الذي قام

(١) وجاء في الامثال الطرابلسية القديمة : « فلان رفعوه الى الطارمة » ولا يزال هذا المثل مستعملا في طرابلس بمعنى ان فلانا رفع امام القضاء .

به جورج الانطاكى اميرال راجار النرماندى ملك صقلية . وحكم النرمانديون طرابلس بواسطة وال عربى عينوه عليها من قبلهم ، ولم يكن هذا الوالى راضيا على النرماندين بل كان شديد الرغبة فى التخلص من الحكم الاجنبى فحاك للنرماندين مؤامرة بيتها سرا مع رجاله ، بان سد الطرق بالحواجز ليلا وربط بين الشوارع الحبال الغليظة ثم اعلن الشعب غداة ذلك ان لا طاعة عليهم لغير مسلم . وخرج الفرسان النرمانديون من القصر ووقعوا فى الحبائل التى نصبها لهم الطرابلسيون .

وقد وقع كثير من المؤرخين فى خطأ كبير باسنادهم بناء القصر الى الاسبان مع ان الثابت ان رفع قواعده وتشييده كان من طرف العرب ويرجع السبب فى ذلك الى ان المؤرخين لم يتركوا لنا شيئا صحيحا يبين لنا سنة بناء القصر واسم بانيه ، ويظهر ان القصر بنى فى عهد الدولة الاغلبية ، ولا نجد فى الكتب التاريخية القديمة اى تفصيل عن شكل القصر وهندسته وارتفاعه ولا عن اسواره وابراجه وغرفه كما لا نجد اى اشارة عن حياة ساكنيه ومجلس السمر والخمر او حلقات التسبيح والذكر التى كانت تعقد فيه ، وكل ما لدينا من تفاصيل عن القصر ترجع الى العهد الاسبانى ، ومن هنا

ظن الكثيرون ان قصر طرابلس من بناء الاسبان . والواقع ان كل ما يسند الى الاسبان فى القصر انهم زادوا فى بنائه ورفعوا سمكه وحصنوه تحصينا قويا كما رفعوا اسوار المدينة وحاولوا تقويتها متاثرين بحمى الحرب ، خوفا من غزو مسلح عليهم من البر او البحر ، لا حبا فى تزيين المدينة وتعميرها او ميلا منهم الى حياة القصور والترف ، لان الاسبان الذين جاءوا الى طرابلس للاحتلال جنود وفرسان اذا استثنينا بعض الاشراف والنبلاء منهم .

الرحالة الهولاندى مرمول (Marmol)

اما الرحالة الهولاندى مرمول (Marmol) الذى زار طرابلس فى اوائل القرن السادس عشر فقد ذكر ان طرابلس اثناء زيارته لها كانت تتمتع بشيء من الاستقرار والرخاء وتتوفر فيها اسباب الحياة المدنية ، وقال : ان التجارة فى طرابلس نامية ونشطة جدا والمدينة مزينة بالمساجد والجوامع الكبيرة وبها معاهد ومدارس ومستشفيات، والمخازن والدكاكين غاصة بانواع البضائع والسلع .

وقد يكون فى هذا شيء من الصحة لان ايام الشيخ عبد الله

اشتهرت بالتساهل مع التجار وعدم اثقال كاهل الناس بالضرائب كما اشتهرت بوجود شيء من الحرية الشخصية في المعاملات التجارية مع الداخل والخارج واحترام التجار الاوربيين ومراعاة العهود والمواثيق التي تبرم مع دولهم وهذا كله ، طبعا يبعث على الراحة ويزيل عدم الثقة في الشعب والتجار الوطنيين والاجانب في عرض بضائعهم ويفتح امامهم مجالا واسعا للكسب والمتاجرة والتهاز الفرص واستغلال الاسواق الداخلية والخارجية .

ويقول مرمول ايضا ان شوارع طرابلس اكثر انتظاما من شوارع تونس، وذكر ايضا انه ليست في طرابلس حنفيات بل فيها صهاريج تتجمع فيها مياه الامطار ويستعمل سكان المدينة مياهها في حاجياتهم اليومية .

ويظهر من كلام مرمول ان صناعة النسيج في طرابلس اثناء زيارته لها كانت نامية جدا فقد ذكر ان الطرابلسيين يعرفون ١٥٠ طريقة في صناعة المنسوجات الحريرية ولم تشتهر طرابلس بالمنسوجات الحريرية في الاسواق العالمية كما اشتهرت الموصل ودمشق ونحن نعتقد ان المنسوجات الحريرية التي ذكرها مرمول ، كانت تصنع للاستهلاك المحلي ،

ولا يبعد ان تكون الاردية النسائية المستعملة اليوم فى كل القطر الطرابلسى تتصل بشىء قريب او بعيد بتلك المنسوجات التى عرفتها طرابلس قبل اكثر من اربع مئة سنة .

على اننا لا نؤيد مرمول فيما ذهب اليه من براعة الطرابلسيين فى صناعة الحرير . فقد يكون فى الرواية شىء من الخلط والخبط لاننا نعتقد ان صناعة الحرير تقوم اما فى بلدان اشتهرت بتربية دودة القز او فى بلاد بها ملك وثروة كبيرة وسلطان مكين، وكلاهما لم يكن منه شئ فى طرابلس قبل زمن مرمول او بعده ، وطبيعى ان الحرير من لباس الطبقات الارستقراطية الغنية الواسعة الثـراء .

ونستخلص من كل ما تقدم على النواحى العمرانية ان طرابلس كانت قبيل الغزو الاسبانى جميلة ورائعة هذا وقد اتفق مع المؤرخين الذين اوردنا ذكرهم فيما سلف قائد الحملة الاسبانية دون بدرو نافارو فى تقريره الذى بعث به الى نائب ملك صقلية. فقد جاء فى هذا التقرير :

انها ((يعنى طرابلس)) اكبر كثيرا مما كنت اتصور ، وان الذين وصفوها لنا سابقا وتغنوا لنا بجمالها وعظمتها لم يقولوا

الا الحقيقــة .

وازاء هذا الاتفـاق بين المؤرخين فى الاشادة بما تتمتع بـه طرابلس من عظمـة فى العمـران ورواج كبير فى التجارة وحصانة الاسوار والاستحكامات والقصـر ، لا نستطيـع ان نجد مبـررا لسقـوط مدينـة طرابلس فى ايدى الاسبـان بسهـولة خصوصا وان الاسبـان انفسهم الذين اشتركوا فى الحملـة على طرابلس شهدوا بان سكان المدينة ابلوا بلاء حسنا واستماتوا فى سبيل الدفاع عن بيوتهم وعائلاتهم كما شهد التاريخ بان السكان جميعا كانوا راضين على سياسة شيخهم سيدى عبد الله، فلم يكن ثمة ما يدعونا الى اتهام السكان او اتهام الحاكم بعدم التعاون فى الدفاع حتى نفسر سهولة سقوط قصر طرابلس وابراجها بسرعة خاطفة وبعد مقاومة ساعات فقط فى ايدى الاعداء على ان الجيش الاسبانى لم يكن من كثرة العدد والمعدات حتى تـخور امـامه العـزائم وتضمحل القوى وتفشل المقاومة .

وكل ما يمكننا ان نفسر به سرعة سقوط المدينة فى ايدى الاسبان هو ان القـلاع والاسوار كانت موجودة فعـلا ولكنهـا غيـر كاملة التحصين وان المدينة كانت تعوزها المعـدات الحربية وان الذين قاوموا الاسبـان من سكان المدينة كانـت تنقصهـم الخبرة

الحربية والتكتيك اللازم لصد مثل هذه الغارات على العكس من الاسبان الذين خبروا الاساليب الحربية لكثرة هجماتهم على البلاد الاسلامية من الشمال الافريقى .

ومن ناحية ثانية فان ما كان الطرابلسيون يسمعونه عن الاسبان وعن قوتهم والاساليب الوحشية التى يستعملونها فى الحرب وتغلبهم على العرب فى الاندلس كل هذا كان له اثر نفسى كبير فى سكان مدينة طرابلس فاستسلموا وهربوا من وجوههم الى دواخل القطر .

هذه مقدمة عن الاحتلال الاسبانى لطرابلس استعرضنا فيها الظروف التى مرت بها البلاد من النواحي الاجتماعية والعمرانية والتجارية وحاولنا ان ننير جانباً كان غامضا فى تاريخا ولعل هذه المقدمات تكون صالحة لتكوين الاطار الكامل للاحتلال الاسبانى .

الفصل الثاني

بدء الغزو الاسباني في الشمال الافريقى

تولى عرش مراكش ابو عبد الله محمد اكبر اولاد محمد الثابتى بعد وفاة ابيه فوجد الدولة على شفا جرف هاو ، فان الاسبان قد نشطوا بانتصاراتهم على المسلمين وقد اكتشفوا امريكا وارادوا ان يتمادوا فى فتح المغرب .

وعند ذلك اعد ابو عبد الله جيشا لمقاومتهم فاتى متاخرا ولما راى قوة الاسبان قفل راجعا ، وراى السلطان انه اصبح فى حيص بيص فاختار ان يستميل ملك اسبانيا فرديناند عدو الاسلام اللدود ، فقصده بنفسه وتوجه الى مدينة برغشت من اعمال اسبانيا وتقدم اليه بالهدايا منها خريدة ملكية نادرة الجمال وخيول عربية ودجاجة من الذهب لها ست وثلاثون نقفا من الابريز الخالص وغيرها من آيات الصناعة الجزائرية الراقية ، وتعاهد معه على ان يدخل تحت حمايته ويعطيه اموالا سنوية ويمد الحاميات الاسبانية بالرجال ، فزاد ذلك الطين بلة فسئمت الرعية هذا الملك الذى ساعد النصارى

عليهـا واثقل كاهلها بالضرائـب ، والحق يقـال ان ابا عبد الله قد ارتكـب هفوات سياسية كانت وبالا على دولته ، فـانه امهل الاسبـان حتى استولوا على وهـران ثم اثقل كاهل رعيته بالضرائب وعاهد الاسبان على غير فائدة له انتهى كلام الكعاك .

ولقد توجهت الحملة الاسبـانية الاولى على الشمال الافريقـى فى ٥ سبتمبـر ١٥٠٥ وكانت قاصدة احتـلال المرسى الكبيـر وفى ١٧ مـارس ١٥٠٩ احتـل الكونت بدرو نافارو (Pedro Navarro) مدينـة وهران وفى ٥ يناير من سنة ١٥١٠ احتـل الكونت نفسـه مدينة بجاية .

ويدعى الاسبـان ليبرروا هجمـاتهم هذه ان الاساطيـل الاسلامية كانـت تغـزو بلاد النصارى وان المسلمـين المغـاربة كان لا يهدأ لهم بـال فى شن الغـارة على الموانىء الاسبـانيـة وبلاد جنـوب اوروبا ، وكانوا يسمـون مثل هذه الحمـلات البحرية اعمال قرصنـة ولصوصيـة بحرية ولذلك عـزموا على احتـلال شمـال افـريقيا لمطـاردة القـرصان ولصوص البحـر حتى لا يرجعـوا الى اعمالهم من بعد ولاخذ الثار من الموانىء الاسـلاميـة .

والواقع ان الاسبـان كانوا البادئين يوم ان طردوا

المسلمين من اسبانيا وتعقبوا آثارهم واذاقوهم الوان العذاب.

ولم يكن عمل السفن الاسلامية قرصنة بالمعنى الذى يريد ادخاله فى روعنا الكتاب الاوروبيون بل كان نوعا من الجهاد وقد فرضه الاسلام على اهله واعتبر شهيدا من مات فى فتح البلاد المسيحية وغزوها واحل غنائمها واسلابها ، ولو كان الغرض من هذه الاغارات القرصنة كما يقول الاوربيون لشملت السفن التجارية الاسلامية ايضا ولكن الواقع انها اقتصرت على السفن المسيحية الامر الذى يدل على ان الجهاد كان الغرض الرئيسى لها .

ولذلك فان ما كان يدعيه المؤرخون الاوربيون باطل لان الاسبان كانوا يريدون افتتاح جميع الشمال الافريقى وبالاخص قاعدة جربة التى لعبت فى هذا العهد دورا هاما فى الحروب البحرية فى البحر الابيض المتوسط . ولكن القائد الاسبانى كان يعلم ان دوام الاستيلاء على جربة لا يتحقق الا بعد ان يستولى على طرابلس حتى يضمن بقاء الاسبان فى الجزيرة والشمال الافريقى مسيطرين على تجارتها وملاحتها وحتى يجعل من طرابلس قاعدة لتموين جيشه ومركزا للالتجاء اليها اذا ما اضطر الى ذلك .

ويقول الرحالة الهولاندى مرمول ان الجنود الاسبان الذين نزلوا بجاية كان عددهم ١٥ الفا نزل جميعهم فى ميدان ضيق ولذلك انتشرت بينهم الامراض السارية التى فتكت بالجنود فتكا ذريعا وكان من اجل ذلك ان اضطر القائد الاسبانى بدرو نافارو الى مغادرتها قاصدا طرابلس بعد ان ترك فى بجاية سكرتيره العام مع عدد من الجنود .

ولكن فى الواقع ان سفر دون بدرو نافارو الى طرابلس كان مدبرا من قبل وقد استعد له ايما استعداد وحضر جنوده وسفنه وتموين الجيش. والرسالة التالية تبين كل ذلك وهى رسالة وجدت فى مخزن اوراق سيمانكا (Simanca) من فرديناند الكاثوليكى ملك اراجون باسبانيا مؤرخة فى مايو ١٥١٠ ومرسلة الى الكونت نافارو وهذا نص الرسالة :

الى الكونت بدرو نافارو قائدنا العام ومستشارنا

استلمت رسائلكم الثلاث المؤرخة فى ٣ مايو والتى بعثم الى بها عن طريق بلنسيه كما استلمت الرسالة الاخرى المؤرخة فى ٥ المذكور والتى سلمها الى كبير ياوران قصرنا ميقويل كابريرا (Miguel Cabrera) وقد امرت ان يكتب الى الونزو شانشيز (Alonzo Sanchez) حتى يطحن باسرع ما يمكن

الف كيس من القمح بمملكة بلنسيه كانت ارسلت هناك وعليكم ان تبعثوا بها الى بجاية ، وستستلمون ايضا كمية من البقسماط المصنوع من هذا الدقيق كافية لتموين ثمانية آلاف رجل مدة خمسة عشر يوما . وبما ان المواد الغذائية ليست متوفرة في هذا الوقت ببلنسيه فقد كتبت الى خازن اموال ملقا (Malága) وفرقاس (Vargas) اطلب منه ان يرسل اليكم حين وصول رسالتي اليه وبدون تردد كل المؤونة التي يمكنه التصرف فيها واضعا في ذلك كل عنايته ، كي تتزودوا بها وقت الحاجة ويكون في استطاعتكم السفر (الى طرابلس) كما انى امرت الخازن المذكور ان يرسل اليكم عشرة آلاف دوكات ، وعند وصولكم الى صقلية ان شاء الله ستجدون كل ما انتم في حاجة اليه وتتمون تزويدكم اذ ان نائب ملك صقلية كتب الى يخبرني بان كل شيء جاهز لهذا الغرض .

واعتقد حسب ما اعلمتموني في عدة مناسبات ، انه اذا اردنا الاستقرار في افريقيا ينبغي ان نحتل مدينة وهران وبجاية وطرابلس ، واذا آلت الاخيرة الى ايدينا يجب ان نسكنها باكملها بالمسيحيين لان المغاربة (المور) هم اصحاب كل ما تبقى من البلاد واذا سمحنا لهم بالاقامة في مدن السواحل

فلـن نتمكن من الاحتفـاظ بممتلكاتنـا زمنـا طويـ

ويجب ان تكون الاماكن الثـلاثة ، اذن

هو احسـن ، محافظـة بحمـاية قوية من المسيحيـ

لاى عربي الدخول اليهـا .

والمهـم اتبـاعه فى عقد المعاهدة مع ملك بجاية

اخرى ترون عقـدها ، هو مسالة التموين ، اذ يـ

على منتوجـات البلـدان المحتلـة فى حاجياتنا ا

قد يصبح من المستحيـل استجـلاب حاجياتنا من

لمدة طويلـة ، فنفقـد بذلك ثمـار ما اكتسبنـاه بمجـ

لذلك يهمنا ان تنظم المسائل بكيفيـة تمكننا

بالاماكن التى وضعنـا عليها ايدينا دون ان نكـ

على تزويدها من الخارج كما فعلنـا حتى اليوم ،

لا ينبغى الا ان ندبر النفقـات الضرورية والمـ

والسفـن اذا ما دعت الظـروف الى ذلك .

فرد

نقلـت هذه الرسالة عن نسخـة فرنسية ذكره

(Charles Feroud) فى صحيفة ٢٢ ، ٢٣

وعلى اثر استلام دون بدرو نافارو هذه

من بجاية ومعه ٨٠٠٠ رجل وكان ذلك فى ٧ يونيو ١٥١٠ م واتجه الاسطول الاسبانى الى فافينيانا (Favignana) فى صقلية لينتظر السفن القادمة من نابولى ومن موانىء صقلية لمهاجمة مدينة طرابلس حسب التعليمات التى تلقاها من الملك فرديناند الكاثوليكى .

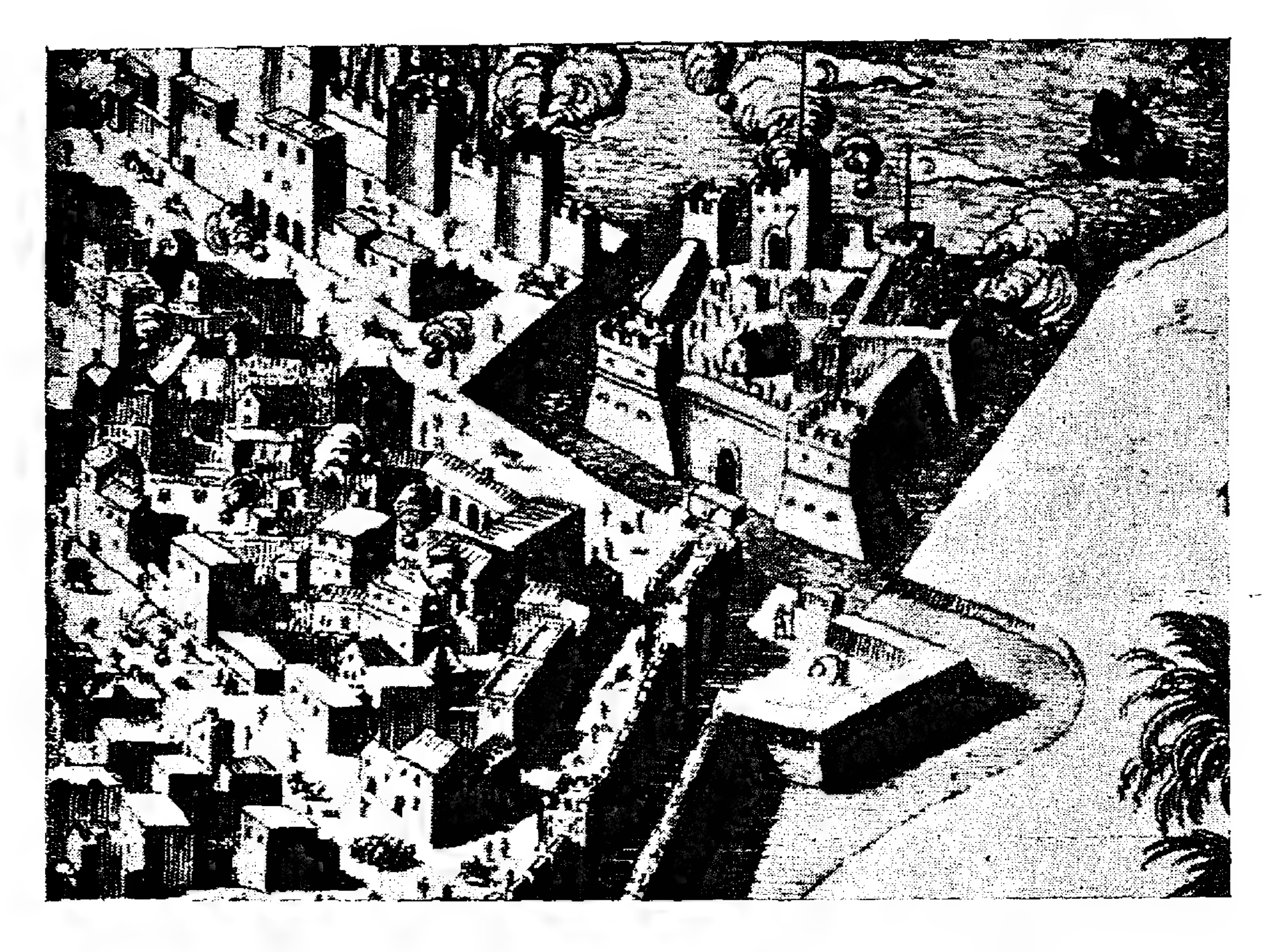
ومن الجدير بالملاحظة ان هذه الحملة نظمت تحت اشراف نائب الملك فى صقلية وباعانة الجيوش الصقلية والايطالية .

وفى ١٥ لوليو ١٥١٠ م اقلع الاسطول الاسبانى من فافينيانا ورسا عند الجزائر المالطية حيث تزود بالماء من جزيرة قوزو (Gozo) ، واستنجد بالمالطيين وانضم الى جيش دون بدرو رجل من مالطة يدعى جوليانو ابيلا (Giuliano Abela) سبق له ان عرف مدينة طرابلس وسواحل افريقيا الشمالية وكان يساعد القائد الاعلى ضابط بندقى برتبة كولونيل اسمه جيرولاسو فيانيللو (Girolamo Vianello) وهو ايضا يعرف مدينة طرابلس معرفة جيدة فقد جاءها من قبل فى بعض الشئون التجارية .

وهذا يثبت لنا استعداد الاسبان الكبير على فتح هذه القاعدة بل ويثبت لنا ايضا تألب المسيحيين فى الاشتراك

مع الاسبان للانتقام من سكان طرابلس بعد ان شعروا بتفكك السياسية وعجزهم عن المقاومة والحرب كما يثبت صحة ما ذهبنا اليه فى اول هذا البحث من ان هذه الحملات كان لها الطابع الصليبى المحض وتسيطر عليها النزعة الدينيه ، ولعل اكبر دافع للاسبان على غزو طرابلس كان لمحاولة الاستيلاء على مصر ولتهديد الاسبراطورية العثمانية الناشئة وتسديد الضربة القاضية لمعاقل الاسلام ، ولم تكن مصر حينئذ فى حالة من القوة والاستعداد تستطيع بهما الدفاع عن نفسها فضلا عن ايقاف الاسبان عند حدهم وعرقلة توسعهم على حساب المسلمين ومد يد المساعدة لسكان شمال افريقيا المهددين فى كل ساعة بالغزو الاسبانى .

على ان البلاد الاسلامية كلها لم تكن فى ذلك الوقت قادرة على تشكيل اسطول حربى وجيش منظم ولو حدث المستحيل واتحدت هذه البلدان المتباعدة المتنافرة المتباغضة لما استطاعت تجهيز اسطول قادر على ان يقف امام الاسطول الاسبانى القوى واعداد جيش به من العدد والاستعداد ما كان لدى الاسبان. فقد جهز الاسبان للحملة على طرابلس فقط ١٢٠ قطعة بحرية بين صغيرة وكبيرة وانضم الى السفن الاسبانية خمسة سفن اخرى



قصر طرابلس فى سنة ١٦٨٥ كما يظهر اثناء حصار الاسطول الفرنسى

من مالطة ، وشحنت هذه السفن بخمسة عشر الف جندى اسبانى وثلاثة آلاف جندى بين ايطالى وصقلى ومالطى .

قسم دون بدرو نافارو جيشه الى قسمين : القسم الاول ويتالف من اربعة طوابير فى كل طابور الف جندى واسندت قيادة كل طابور الى واحد من القواد الاربعة .

١) - دياجو باشيكو (Diego Pacheco) ٢) - يونس دى ارياجا (Joanes de Arriaga) ٣) - جوان سلجادو (Juan Salgado) ٤) - افيلا (Avila)

وكلف هذا القسم بمهاجمة العرب الموجودين خارج المدينة لمنع وصول اية مساعدة قد تصل من الخارج الى سكان المدينة لغرض اذكاء المقاومة . اما باقى الجيش فكلف بمهاجمة البلاد والانقضاض على الاسوار والقلاع .

واقترب الاسطول الاسبانى من طرابلس وبات الكونت بدرو نافارو ينظم الجيوش ويضع الخطط ويصرف الاوامر وهو يحلم بالثروة الكبيرة التى سيحصل عليها لا محالة من طرابلس خصوصا وان شهرة طرابلس وثروتها ووفرة خيراتها كانت منتشرة فى اوروبا فى صورة اشبه ما تكون بالخرافة .

ولم يكن بدرو نافارو نبيل المولد شريف الاصل وانما

انحدر من عائلة فقيرة ، فقد ولد فى بسكى حول سنة ١٤٦٠ م واشتغل فى اول حياته عاملا بالمناجم وحارب بين سنة ١٤٩٩ و ١٥١٠ فى جيش دون كونسالفو القرطبى (Don Consalvo di Cordova) فى جزائر اليونان وايطاليا الجنوبية واشتهر دون بدرو فى مختلف المعارك بالجرأة والاقدام والخبرة الحربية وفى سنة ١٥٠٤ ولى على اوليفيتو بمنطقة الابروتزى بايطاليا.

رسا الاسطول الاسبانى امام ميناء طرابلس ليلة ٢٥ لوليو ١٥١٠ م وجرت عملية انزال الجيوش فى القوارب الصغيرة التى جهزت واعدت من الليلة السابقة ، وبدأ هجوم الاسبان عند الساعة التاسعة صباحا وكان اليوم حارا شديد الحرارة واصطف ستة آلاف جندى استعدادا للقتال فى جهة الساحل الواقع فى الجنوب الشرقى من المدينة والظاهر كان عند سيدى الشعاب لارتفاع هذه الجهة ولاشرافها على المدينة. ولتوفر المياه الصالحة للشرب فيها . واقتربت السفن من القصر والاسوار المطلة على حوض الميناء واخذت ترميها بحممها ونار مدافعها بينما كانت مدفعية الميدان تمهد السبيل الى الفلانج الاسبانى وترمى الاسوار الجنوبية الشرقية بالقنابل ، وكان قسم آخر من الجيش يحمى ظهور المغيرين من اى هجوم يقع من طرف

عرب الدواخل عليهم .

اما عرب مدينة طرابلس فلم تكن لديهم الوسائل الكافية للرد على الضرب بالمثل واذكاء المقاومة وعرقلة تقدم الاسبان نحو القصر والاسوار ، اذ أن عدد سكان المدينة كان ضئيلا جدا فلم يبق فيها سوى بضعة آلاف بين رجال ونساء واطفال اما الباقى ففروا الى تاجوراء وجبال غريان ومسلاتة لانهم سمعوا بمقدم الاسبان قبل ٣٥ يوما واخرجوا معهم اموالهم على الجمال التى يقدر عددها بخمسة آلاف جمل ، ولم يبق فى المدينة الا الجنود وبعض المدنيين وشيخ المدينة عبد الله بن شرف وازواجه وابناؤه واصهاره وبعض العائلات اليهودية التى كانت تقطن فى حارة جوديخا (Jodecha) اليهودية والقريبة مما نسميه اليوم الباب الجديد ، وانحاز اغلب المدنيين فى الجامع الكبير وفى القصر حيث الشيخ عبد الله وعائلته. اما فوق الاسوار وفى القلاع فكانت الحامية الطرابلسية القليلة.

وحوادث الاستيلاء على طرابلس وتفصيلها رواها الكونت بدرو نافارو فى رسالة بعث بها الى نائب الملك فى صقلية فى يوم ٢٩ لوليو من السنة نفسها . وقد يكون من الافضل تتبع ما جاء فى رسالة الجنرال الاسبانى . قال :

وصل الاسطول الاسبانى امام سواحل طرابلس صباح الخميس من يوم ٢٥ لوليو سنة ١٥١٠ م الذى يوافق يوم القديس جاك الرسول ، وهو اليوم العزيز عند الاسبان ، ونزل فى ظرف ساعات قليلة ستة آلاف جندى هاجم نصفهم البلاد اما النصف الاخر فكان يحرس ميدان القتال خوفا من غارات عرب الضواحى ، واستولى المهاجمون بمساعدة مدفعية الاسطول على جزء من الاسوار وعلى قلعتين ، ثم استولوا على البرج القائم فوق باب العرب (١)

وفتح الاسبان هذا الباب ودخلوا المدينة وجرت بيننا وبين العرب داخلها معارك ابلى فيها الطرابلسيون بلاء حسنا . وجاء فى هذه الرسالة ايضا : وكان عدد الموتى من جانب الشعب كبيرا جدا حتى انه لم يخل موضع قدم من قتيل ويقدر عدد الموتى من العرب بخمسة آلاف اما الاسرى فعددهم يزيد على ستة آلاف ، وعدد الموتى من الاسبان كما يقول القائد الاعلى دون بدرو كان ضئيلا جدا .

واذا صح ما ذكره دون بدرو فى رسالته هذه وصدق فى

---

(١) Puerta de Los Alarbes باب العرب
- يحتمل ان يكون باب المنشية او سوق المشير الان)

لارقام الواردة عن عدد الموتى والاسرى من العرب كان فى ذلك ما يجعلنا نعتقد ان عدد سكان مدينة طرابلس كبير جدا باضافة عدد العائلات والافراد الذين فروا قبل الغزو الى القرى القريبة من طرابلس والى التلال الجنوبية والشرقية ، وان دلت هذه الرسالة على شىء فان ابرز ما تدل عليه هو ان سكان طرابلس لم يبلوا البلاء الحسن فقط وانما ضحوا بانفسهم جميعا وقدموا انفسهم للموت او الاسر جميعا فى سبيل الذود عن حياض الوطن المقدس .

ويسترعى نظر المؤرخ ما جاء فى آخر رسالة القائد الاسبانى دون بدرو نافارو ، فقد قال : هذه البلاد (يعنى طرابلس) هى اعظم كثيرا مما كنت اتصور وان الذين وصفوها لنا سابقا وتغنوا لنا بجمالها وعظمتها لم يقولوا الا الحقيقة بل لم يقولوا الا نصف الحقيقة ، ولم ار مثلها فى حصولها ونظافتها من بين جميع المدن التى رايتها .

وهناك وصف آخر لمدينة طرابلس كتبه باتيستينودى طونسيس (Batistino de Tonsis) وهو احد افراد هذه الحملة. قال:
« مدينة طرابلس مربعة الشكل ويزيد محيطها على ميل واحد ولها سوران بينهما خنادق ضيقة عميقة ، والسور الاول

قصيـر اما الثـانى فمرتفع وسميك وعليـه الابراج العـالية الحصينة ويحيط البحـر بالمدينـة من ثلاث جهـات تقريبـا ولهـا ميـنـاء عظيم يسع ما لا يقل عن اربع مائة سفينة ويقال انه يسكنهـا اكثـر من عشرة آلاف عربى وبعض اليهود . » .

وقد ترك باتيستينو دى طونسيس هذا وصفـا مفصلا عن حوادث الاستيـلاء على طرابلس قال : «حمى وطيـس الحرب عندما تمكن حامل العلم من نصبـه على بـرج القصـر ، فدخل الجيش البـرى المدينة يقتل ويشرد العـرب الذين كانـوا قد اغلقوا عليهم باب القصـر والجامع الكبيـر ، اما رجال البحـرية الاسبانية فكانوا يقاتلـون جهة باب البحـر ، وتغلبـوا على مقاومة العرب العنيفـة وبعد ان اجتـاز الاسبـان الاسوار دخلـوا المدينـة ثم احتل القصـر عنوة واخـذ فيـه شيـخ المدينـة وابناؤه وزوجـه اسرى ، واطلق سراح ٥٠٠ مسيحيا كانوا اسرى عند العـرب مكبلـين فى الاغـلال ، ومات فى هذه المعارك ٥٠٠ جنـديا مسيحيـا . .

ويقول مصدر آخر « ان اكبر مقاومة وجدها الاسبان كانت فى الجامع الكبيـر الذى قتل فيـه الفا عربى بين رجال ونسـاء واطفـال » ويقول نفس المصدر : « ان عدد الموتى من الاسبـان

كان ثلاثة مئة رجل وكان من بين الموتى كولونيل كبير فى الجيش واميرال الاسطول وشخصية اخرى كبيرة من النبلاء .

وهكذا قبل ان تغرب شمس ذلك اليوم غربت دولة الشيخ عبد الله المرابط وفشلت كل مقاومة ووقعت جميع النقاط الاستراتيجية فى ايدى الاسبان الذين استولوا استيلاء كاملا على المدينة . ورفرف علم فرديناند الكاثوليكى فوق ابراج طرابلس ، وبكى حمام القصر الزاجل ، وهو يودع الشمس بعد ان اقلقته ضربات المدافع الاسبانية ، عرش سيده ونبل ملكه الشيخ عبد الله ، غربت الشمس وكانت قد سالت على الارض الجافة الحارة فى ذلك اليوم الجاف الحار دماء حمراء سخنة وتكدست فى الشوارع والحارات والازقة والطرقات ، قرب الاسوار وقرب القصر وفوق الابراج فى صحن الجامع الكبير وعند المحراب وحيثما حللت واينما وضعت قدمك جثث اطفال شاركوا بالعويل والبكاء وجثث نساء مبقورات البطون مقطوعات الاثداء وجثث شيوخ وجثث كهول. هذه هى مسيحية الملك الكاثوليكى ولهذا كانوا يسمون مثل هذه الحروب بالحروب المقدسة .

ويقول مؤرخ هذه الحملة سانودو فى مذكراته ان جثث

الموتى القيت فى صهاريج الجوامع والمساجد والقى ببعضها فى البحر طعمة للاسماك واحرق بعض آخر منها .

ولم تكن غنائم الاسبان فى طرابلس كبيرة كما كانوا يتوقعون ويحلمون اذ ان الاغنياء فروا باموالهم وخيراتهم الى دواخل القطر والى القرى القريبة من المدينة ، وكل ما امكنهم الحصول عليه كغنيمة يتلخص فى سفينة واحدة من الطراز الكبير وثلاثة اخرى من النوع المتوسط وعلى عدد من القوارب ، وغنم الاسبان فى الايام التالية للاحتلال عدة سفن اخرى صغيرة وكبيرة كانت آتية من الاسكندرية دون ان تعلم بالاحتلال الاسبانى .

وبعد ان استقرت البلاد فى ايدى الاسبانيين بعثوا بالاسرى لتباع فى جزيرة صقلية وبلدان ايطاليا ، وارسل شيخ المدينة عبد الله بن شرف الى مسينا (Messina) من اعمال صقلية اسيرا مع ابنائه وازواجه ، الى ان ارتأى شارل الخامس الامبراطور المقدس اعادته الى وطنه تدعيما لسياسته ونفوذه على طرابلس فارجع ، وذكر قنصل دولة البندقية (Venezia) فى باليرمو (Palermo) فى رسالة له بتاريخ ٣ سبتمبر ، انه وصل الى باليرمو من طرابلس ١٤٠٠ اسير طرابلسى ، وذكر انه

ينتظر ان يصل آخرون غيرهم ، وقد بيعوا بالمزاد العلني باثمان تتراوح بين ثلاث وخمس دوكات (Ducats) عن الاسير الواحد ، اما الاسرى اليهود الذين بيعوا فى ايطاليا فقد اشتراهم اخوانهم يهود ايطاليا وحرروهم .

هذا ولا يستطيع المؤرخ ان يتغافل عما كتبه المؤرخون العرب عن الاحتلال الاسبانى لطرابلس ، على الرغم ان ما كتبه هؤلاء لا يقنعنا كثيرا ، ذلك لان كثيرا من المؤرخين يحبون ان يفسروا الوقائع التاريخية الكبيرة بالاساطير والخرافات ولهذا لم يسلم ما نقلوه لنا من خبط وخلط فى الموضوع وتشويه لجوهر الحقائق ، وليس معنى ذلك انهم كانوا يتعمدون الكذب وانما لانهم ينقلون الاخبار والوقائع عن افواه العامة ويسطرون ما يسمعون دون ان يبحثوا عن مواضع الشك فى الرواية والسند وتمييز الاخبار الصحيحة من الغثة .

وقد روى كل من العياشي وابن غلبون والنائب قصة طريفة عن مقدمات احتلال الاسبان لطرابلس ولكنها اقرب ما تكون الى الخيال منها الى الواقع .

قال ابن غلبون :

« وسبب اخذهم لها (يعنى الجنويين) ان اهلها بعد دخولهم فى

طاعة الموحدين كثرت اموالهم وتجاراتهم واطمأنوا ولم يشتغلوا بالحرب حتى لم تكن لهم خبـرة فقدمت عدة سفـن للعدو موسوقة بانواع البضائع وفيها من كل نوع كثير ، فتقدم اليهم تاجر من تجار المدينة فاشترى جميع ما فيها من سلع ونقدهم ثمنهـا . واستضافهم رجل آخر صنع لهم طعاما فاخرا واخرج ياقوتة ثمينة فدقها دقا ناعما بمراى منهم وذرها على طعامهم فبهتوا من ذلك، فلما فرغوا قدم اليهم دلاعا (بطيخا) فطلبوا سكينا لقطعه فلم يوجد فى داره سكين وكذا دار جاره الى ان خرجوا الى السوق فاتوا منـه بسكين ، فلما رجعوا الى جنوة سالهم ملكهم عن حالها فقالوا : ما راينا اكثر من اهلها مالا واقل سـلاحا واعجـز اهلا عن دفاع العـدو ، وحكوا له الحكايتين ، فتاقت نفسه الى اخذها وجهز لها اسطولا فاخذها فى ليلـة واحدة بلا كثير مشقة واستولى عليها ولم ينج من اهلهـا الا من تسور ليـلا »

ولا شك ان هذه القصة ، كما قدمنا ، هى اقرب ما تكون الى الخيال منها الى الحقيقة وفى سرد وقائعها ما يحمل على الاخـذ بعدم صحتها ، ويكفى ان نعرف انه كان بالمدينة سوق تباع فيها السكاكين وان هذه الالة من مستلزمات الحيـاة المنزليـة التى لا غنى لاحد عنهـا ، وكيف ناخذ بمنطق هذه القصةوسحق

الياقوت على الطعام ما يدل على عدم سبك حوادثها الا اذا اخذنا به على انه من تصرفات العقول المخبولة ، ومهما يكن من شيء ففي ذكر هذه القصة تصوير لما كانت عليه طرابلس من رخاء وغنى دفع اهلها الى حياة الكسل واهمال العدة لاى طارىء خارجي ، وان اخطأ المؤلف فى تصويرها بشكل منطقى مسبوك (١) وفى الوقت نفسه اسند المؤلف هذه الحملة للجنويز لا للاسبان وفى هذا ما يشعرنا بضعف السند الذى نقل منه المؤرخون الثلاث : العياشي وابن غلبون والنائب .

وقد كان التاثر شديدا فى البلاد الاسلامية لسقوط طرابلس فى ايدى المسيحيين ، الا ان المسلمين كانوا فى ضعف شديد لا يستطيعون ان يمدوا يد المساعدة الى الطرابلسيين ضد العدو المشترك .

وذكر مارتين سانودو (Martin Sanudo) فى مذكرة له مؤرخة فى ٢٤ نوفمبر ١٥١٠ ان العرب الطرابلسيين المقيمين فى الاسكندرية عندما سمعوا بسقوط بلادهم فى ايدى الاسبان اجتمعوا فى المسجد ثم خرجوا الى فندق هناك اصحابه جماعة من الاسبان واضرموا فيه النار .

واستقبلت اوروبا المسيحية خبر احتلال طرابلس من قبل

---
(١) بعيو

الاسبان بابتهاج كبير ، وشجع هذا الانتصار ملوك اسبانيا وقوى آمالهم واذكى امانيهم ومطامعهم فى افريقيا. وعزم الملك فرديناند الكاثوليكي على تعبئة حملة بحرية كبيرة يترأسها بنفسه لتوسيع الفتوحات ، ولهذا كان شتاء وربيع سنتى ١٥١٠ و ١٥١١ مليئين باعمال التعبئة والتجهيز والاستعداد لحرب واسعة النطاق ، وكان من المقرر ان تقلع من ميناء مالقة ، الا ان سوء الحال فى ايطاليا واهتمام اسبانيا المتزايد بالعالم الجديد جعل الملك فرديناند يغير سياسته ويصرف اهتمامه عن الاستيلاء على افريقيا ، وقد احدث خبر احتلال طرابلس فى ايطاليا ابتهاجا عظيما ، فقد دعا نائب البابا فى بولونيا المسيحيين ان يحتفلوا باحتلال مدينة تسمى طرابلس قال فى خطابه انها عامرة بالسكان.

وجرى فى روما احتفال باحتلال طرابلس يوم ١٠ اغوسطو وزاد فرح وابتهاج المسيحيين فى اوروبا عندما علموا مدى وفرة خيرات هذه المدينة وكثرة ثروتها وقوة حصونها وابراجها ، ولكن مظاهر الابتهاج كانت اروع واعظم فى ايطاليا الجنوبية وبالاخص فى مالطة وصقلية ، وتخليدا لهذا الانتصار على العرب فقد سك نائب الملك فى صقلية مدالية تذكارية .

وتقاطرت التهانى على الملك فرديناند الكاثوليكى بهذه المناسبة ومن بينها رسالة وردت من القسيس امريكو داسبواس (Fra Americo D'Amboise) رئيس منظمة فرسان القديس يوحنا فى رودس ، وانتهز القسيس هذه الفرصة واعلم الملك الكاثوليكى بالانتصار الذى احرزه الاسطول الرودسى المسيحى فى آخر اغوستو من تلك السنة على اسطول سلطان مصر قونصوه الغورى فى خليج الاياس (Laiazzo) ورجا من الملك ان يتابع فتوحاته فى افريقيا حتى اراضى مصر اسلا فى ان تتصل قوتاهما هناك .

الفصل الثالث

الاسبان بين جربة وطرابلس

تم لاسبانيا الاستيلاء الكامل على مدينة طرابلس وذ
الحاميات الاسبانية بالقصر والاسوار واستقر الاسطول فى المي
ولكن اسبانيا لم تكن تهدف الى اخضاع هذه القاعدة لها و
كما اسلفنا كانت تحاول الاستيلاء على الشمال الافريقى ك

واستيلاء الاسبان على طرابلس سنة ١٥١٠ هو حادث يج
ان يبحث من وجهة اخرى، ذلك لان حوادث القرن السا
عشر ضمت طرابلس والشمال الافريقى باجمعه ضمن اطار السي
الاوروبية .

سقطت القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣ م فى يد الاتراك العثمان
وكان من نتائج تقدم محمد الفاتح وبايزيد الثانى وسليم الا
فى شبه جزيرة البلقان وتوغلهم فى اراضى اوروبا المسيح
ان اشتد النزاع بين الشرق والغرب خصوصا وان العثماني
كانوا يبشرون الى الدين الاسلامى الى جانب فتوحاتهم وانتصار

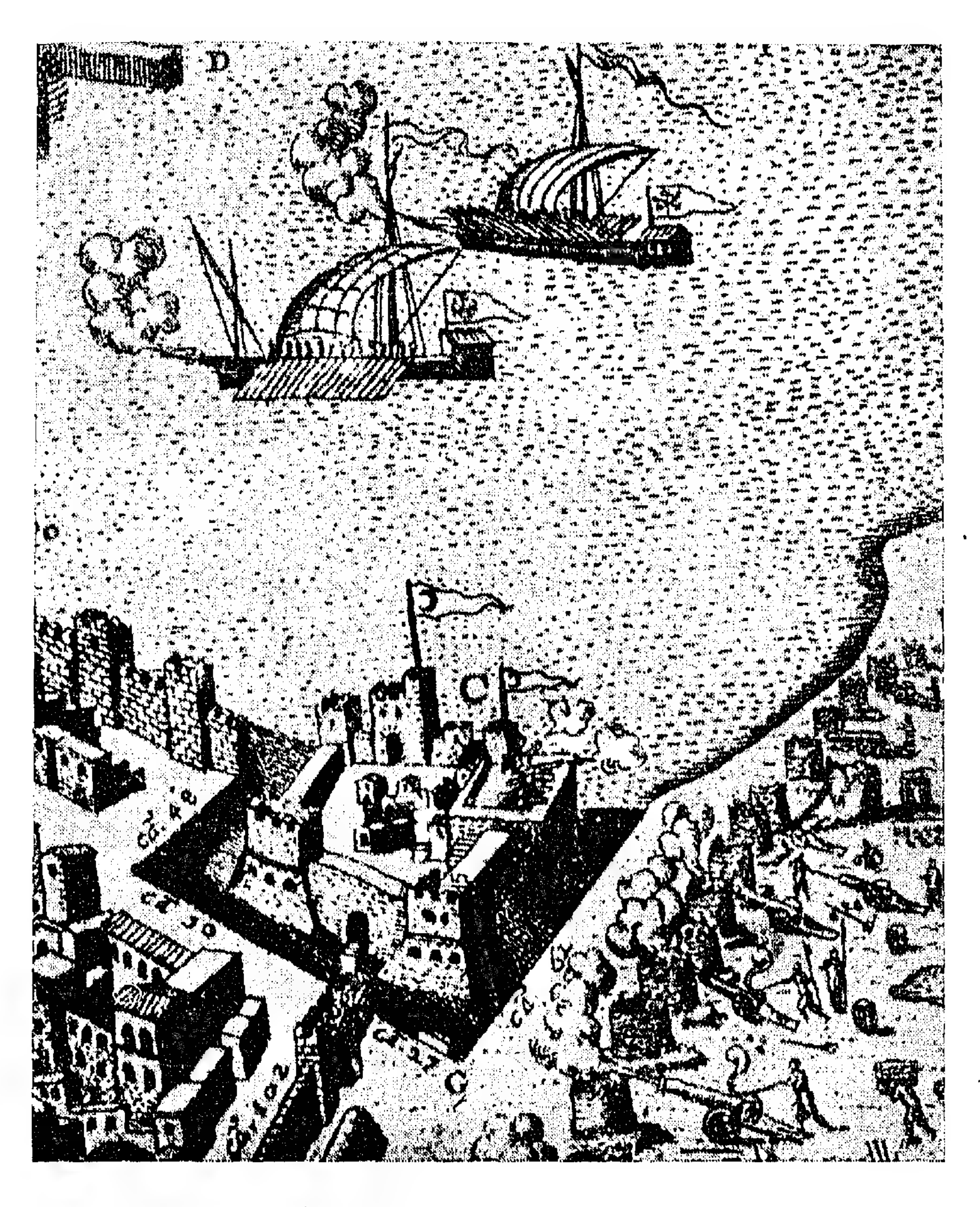
اما اسبانيا التي استطاعت في سنة ١٤٩٢ م ان تتغلب على آخر مملكة عربية في غرناطة فقد كانت تحاول ان توقف هذا التوسع الاسلامي في اوروبا بتوجيه نظر الاتراك العثمانيين الى الشمال الافريقي حيث بدأت اسبانيا تظهر اولى محاولاتها لاحتلاله ومد نفوذها عليه ، وهاتان حركتان متقابلتان بدأت الاولى من الشرق واتجهت نحو الشمال الغربي ترمي الى فتح اوروبا الى دين الاسلام ويتزعمها الاتراك اما الثانية فاخذت سبيلها من اقصى الغرب واتجهت نحو الشمال الافريقي ترمي الى تمسيحه ، بعد ان صدر مرسوم ملكي من الملكين الكاثوليكيين فرديناند ملك اراجون وازابلا ملكة قشتالة سنة ١٥٠٣ م يقضي بطرد جميع المسلمين من شبه جزيرة ايبيريا ، ولقد كان الاسبان آنئذ يشعرون بنشوة انتصارهم على العرب ولذلك كان من الطبيعي ان لا يكتفوا بتحرير بلادهم بل انقضوا على فتح البلدان القريبة منهم وبدأوا مغامراتهم التجارية فكان هجومهم على الشمال الافريقي الذي كان محطة لنفوذ كل دولة قديمة طلبت السيادة على البحر الابيض المتوسط .

اما دولة البندقية فقد كانت مهددة بالغزو العثماني ولقد اضطرت الى الدفاع عن ممتلكاتها المضطربة الحائرة امام جيوش

الاتراك وسفنهم

وكانت اوروبا الغربية بعيدة عن اطار السياسة العالمية ولكنها بدأت تتقوى وتاسست فيها ممالك كانت تنتظر الفرص لاكتساب السيادة السياسية والاقتصادية ، ولعبت اسبانيا فى هذا الدور الملئ بالحوادث دور الزعيم وقادت الحركات القومية الاوربية وصارت محط انظار العالم المسيحى ومحور آمال المسيحيين وامانيهم واستطاع الاسبان فى سنوات قليلة بعد تحررهم من السيادة العربية ان يخضعوا بصورة مباشرة اوغير مباشرة اهم القواعد على هذا الساحل من افريقيا اذا مااستثنينا جزيرة جربةوسصر وكان الكونت بدرو نافارو يعلم ان احتلاله لمدينة طرابلس فقط لا يجعله بعيدا عن خطر الغزو والهجوم عليه كما ان خطوط المواصلات بين طرابلس واسبانيا وطرابلس وصقلية مهددة فى كل ساعة بخطر هجوم قراصنة جربة الذين كانوا لا يفترون عن شن الغارة على السفن المسيحية ، وكانت جربة هى المعقل العادى للقراصنة الذين تفشوا فى الممر البحرى الضيق الذى يفصل صقلية عن تونس .

وليس فى مقدور الكونت بدرو نافارو ان ينظم خطوط الامدادات بالسفن والرجال والعتاد الا اذا امكنه ان يخضع



هذه الجزيرة لنفوذ ملك اسبانيا ، كما ان احتلاله لجربة يساعده على تنفيذ خططه التالية .

واقلع الكونت بدرو من طرابلس يوم ٣٠ لوليو ١٥١٠ قاصدا جربة فى ١٢ سفينة بين كبيرة وصغيرة بعد ان عهد الى احد رجاله واسمه جوم بدرو ريكيسنس (Jayme Pedro Requenses) امر الدفاع عن مدينة طرابلس وترك بين يديه عددا من الرجال وبعض المدافع . واركب الكونت بدرو باقى رجاله فى السفن وحمل معه شيخ المدينة عبد الله بن شرف ومعه ابناؤه وازواجه واصهاره وبعث بهم الى باليرمو .

وكانت جزيرة جربة تابعة اسميا لملك تونس الحفصى ولكنها منفصلة عنه سياسيا بسبب ضعف ملك تونس واستفحال امر الشيوخ والامراء والولاة فى هذا الدور فى جميع بلاد الشمال الافريقى .

وكان الكونت الاسبانى يعتقد ان مصير هذه الجزيرة هو الاستسلام له دون اية مقاومة او حرب امام عظمة اسطوله وكثرة عدد جنوده. ورسا الاسطول الاسبانى فى قناة القنطرة فى جربة وانزل القائد ثلاث رجال يتكلمون اللغة العربية ويحملون اعلاما بيضاء اشعارا بمجيئهم للتفاوض

ولعرض رسالة من القائد الا ان سكان جربة كانوا على استعداد للدفاع والمقاومة والقتال لانهم سمعوا بفاجعة احتلال الاسبان لطرابلس وعرفوا جميع ما ارتكبه الاسبان فيها من فظائع وسمعوا بالمذابح التى اقترفوها فى طرابلس ، ولذلك استعدوا ووطدوا العزم على عدم التسليم ونشط فرسانهم فى خفر السواحل وتفقد السفن التى تقترب من الجزيرة حتى لا ياخذهم العدو على حين غفلة .

ولم يتقدم حاملو الاعلام البيضاء كثيرا فى ارض الجزيرة حتى تقدم منهم الحراس المكلفون بخفر السواحل ولم يلتفتوا الى ما كانوا يقولون وما كانوا يعرضون ولم يمهلوهم بل عاجلوهم وقتلوهم اشعارا بعدم قبول اى تفاوض يسلبهم حق التمتع بحكم جزيرتهم ويخضعهم لنفوذ الملك الكاثوليكى كما سبق ان خضع له ملك تونس وملوك المغرب وسكان مدينة طرابلس .

واقترب سكان جربة من الساحل وهم على اتم الاستعداد للحرب وصاحوا بالاسطول الاسبانى الذى كان راسيا قريبا من الشاطىء انهم ليسوا مجانين حتى يسلموا جزيرتهم ويستسلموا لجزاريهم كما يستسلم الدجاج وحذروا الجيش الاسبانى

واعلموه انهم قرروا الحرب حتى الموت دفاعا عن اموالهم ونسائهم وشرفهم ودينهم .

وشعر الكونت بدرو نافارو بخطورة ما هو قادم عليه وعلم ان عرب الجزيرة عازمون عزما اكيدا على المقاومة والحرب وان جميع ما لديه من قوة وعتاد وجوار فى البحر كالاعلام لا تفل من عزمهم ولا تفت فى عضدهم. عرف القائد الاسبانى ان امامه معركة ليست سهلة كما كان يعتقد وانه امام تجربة خطرة على ما كان يتمتع به الاسبان من سيادة ونفوذ سياسى وعسكرى قد تذهب بجميع ما امتلكوه وتجر الملك الكاثوليكى الى فضيحة امام العالم المسيحى ولذلك قرر الاقلاع عن جربة وامر الكونت بالابحار توا الى طرابلس وترك هذه الحملةعسى ان يجمع قوة اكبر واسطولا اعظم

وصل الاسطول الاسبانى الى طرابلس يوم ٩ اغوستو ١٥١٠ قافلا من جربة ونزل الجنود والبحارة الى البر وفى يوم الخميس ١١ اغوستو ١٥١٠ استعرض دون بدرو نافارو رجاله وكان عددهم خمسة عشر الف جندى مسلح ، اركب الاسطول منهم اثنى عشر الف جندى وترك البقية الباقية فى طرابلس للدفاع عن المدينة ، ولم يكن الطقس ملائما للابتعاد عن

الشاطىء فاضطر الاسطول الى البقاء فى الميناء الى يوم ٢٣ من الشهر نفسه ينتظر تحسن الجو وملاءمة الطقس وهدوء العواصف.
وبينما كان اسطول دون بدرو راسيا فى الميناء ينتظر الاقلاع الى جربة ظهرت فى عرض البحر خمسة عشر سفينة كبيرة وثلاثة اخرى صغيرة تحت قيادة دون قرشيا الطليطلى دوق البا Don Garcia Di Toledo ومعه دياجو دى فير (Diego Di Vera) وثلاثة الاف جندى كانوا مرابطين فى بجاية ووصل رجال دون قرشيا الطليطلى الى ميناء طرابلس وهم فى حالة اعياء شديدة وتعب كبير لما لاقوه فى عرض البحر ولذلك نزلوا الى المدينة ليروحوا عن انفسهم وليذهبوا مابهم من تعب .

وانضم هذا المدد الى جيش الكونت بدرو نافارو وبقى الاسطولان فى ميناء طرابلس الى يوم الثلاثاء ٢٧ اغوستو ١٥١٠ حيث اقلعت جميع السفن قاصدة جزيرة جربة لارتكاب مذابح جديدة هناك ، وابقى القائد الاسبانى ثلاثة آلاف جندى على طرابلس تحت قيادة القائدين ساماناياقو (Samaniego) وسالومينو (Salomino) وفى يوم الخميس ٢٩ اغوستو رسا الاسطول الاسبانى امام

جربة قرب برج كان يتخذ للاستكشاف يبعد عن الشاطىء بميل واحد تقريبا وفى الصباح الباكر من يوم الجمعة نزل الجنود من السفن وهاجموا السواحل سيرا على الاقدام وسط مياه البحر القليلة العمق .

وكان هذا اليوم حارا شديد الحرارة ولم يكن قرب الساحل آبار او صهاريج يستسقي منها العسكر واضطر بعضهم ان يشترى كاس الماء بعشرة قروش طرابلسية ، وتحرك الجيش الاسبانى بعد ان انتظمت فرقه قاصدة مهاجمة البلدة وكان الجيش الاسبانى يتكون من احد عشر طابورا ، ونصب امام الجنود فى الوسط مدفعان كبيران واثنان آخران من الحجم المتوسط وكلف رجال البحرية بسحب هذه المدافع الى الامام .

وبعد ان قطع الجيش الاسبانى شوطا من الطريق بدأ الاعياء يظهر جليا على الجند واشتد العطش بين الرجال وعلى الاخص الذين كلفوا بسحب البطاريات وبراميل البارود ، واختل النظام ولم يعد فى مقدور الضباط ان يرجعوا النظام الى نصابه ، اشتد العطش وبدأ الجنود يلهثون لهث الكلاب الصادية ويتساقطون امواتا . اما دون قرشيا الطليطلى الذى لبس درعه المذهب وتسلم قيادة الجيش فكان يشجع رجاله

ويعدهـم بان اماسهم الابار الفياضة والمياه الفضيـة الباردة والظل الظليل تحت اشجار النخل والزيتون .

وتشجع الجيش قليلا طائعا او مكرها وتعثر الجند فى خطواتهم بين الياس والرجاء وقطعوا ما اماسهم من ارض رمليـــة ، وهم ينتظرون ان يروا بعدها ما وعدوا به ليطفئوا غلتهم ويرووا ظمئاهم من ماء الجـزيرة البارد الفضـى ، فلـم يروا شيئـا ولم يصادفوا فى طريقهم اى شخص صديقا كان او عدوا وكان لهذا الاثر الكبير فى تثبيط هممهم والقضاء على معنوياتهم وكم كان سرور الاسبـان كبيـرا عندما بدت امـامهم خضـرة اشجـار الزيتون وايقنـوا انهـم سالمـون حقـا من الموت عطشـا ، وان كثيرا او قليـلا مما وعدوا به قد تجلى وظهر، كان الوقت ظهرا عندما وصل الجنود غابات الزيتون فى جزيرة جـربة وكانت الشمـس حارة تلفـح الارض وتشوى الوجوه والاجسـام ، انها شمس اغوسـتو فى الشـــمال . الافريقى دون شذود عن المعتـاد ، ووجد الجنود وسط هذه الغـابات وعلى قارعة الطـريق الابـار فعـلا غيـر مقفلـة او مـردومة ومياهها الصافية النقية البـاردة تكاد تدعو الاسبانى ان يلقى بنفسه فيها حتى يرتوى ، ولكن عرب الجزيرة اشفقـوا عليـه من الارتماء

فى احضان البئر فتركوا قرب هذه الابار جرات وقللا فارغة وقدرا كافيا من الحبال لتساعد الجنود الاسبان المساكين ورد الماء واستخراجه من الابار دون مشقة او عناء .
يالها من انسانية ثعلب ......

ولكن اين عرب الجزيرة يا ترى ؟ هل تركوا ارض اجدادهم عندما صبحهم الجيش المغير وغادروا ربوع جزيرتهم عندما صاح صائحهم : الاسبان الاسبان الاسطول الاسطول ؟ ......

بدت جربة مقفرة من السكان جرداء من الحياة وظن الاسبان انهم بمنجى من العدو او انهم قادمون على اكتساح ارض لا يسكنها انسان فاختلت صفوفهم وتركوا مراكزهم وفقدوا شعورهم امام منظر الابار والقلل والجرار وتشتتوا فى جلبة وضوضاء وتسابقوا الى احتضان القلل وتقبيل شفاهها الجافة وبدات معركة حامية بين الجند انفسهم لافتكاك الجرار والقائها فى الابار للحصول على قطرة من الماء .

ولم يترك عرب جربة جزيرتهم غداة ظهور الاسبان امام سواحلهم بل وضعوا خطة حكيمة للقضاء على الجيش المغير على الرغم من قلة عددهم وقلة عددهم ونقص اموالهم ، فلقد استعد سكان جربة قرب هذه الابار للانقضاض على الاسبان

عندما يتهافتون على الماء وتختل صفوفهم وتبدو عليهم الفوضى . كانت فرصة مواتية لعرب الجزيرة فلقد انقضوا على الاسبان فى شدة وعنف وطوقوهم من كل مكان ونزلوا عليهم ضربا بالسيوف والرماح ولم تنزل جرعه الماء بعد الىاجوافهم ولم تهدا المعركة التى اضرسوها بينهم على الماء .

وكان عدد الجيش الذى استطاع سكان جربة ان يجمعوه يتالف من ثلاثة آلاف فارس وبعض المشاة ، هذا ما يدعيه المؤرخون الاجانب ، ونحن نعتقد ان هذا العدد مبالغ فيه كثيرا ولا نظن ان سكان جربة كان لديهم ثلاثة آلاف فارس وانما ذكر المؤرخون الاجانب مثل هذا العدد من الفرسان ليقللوا من فضيحة اندحار جيش الملك الكاثوليكى امام جزيرة صغيرة ليس لها اية اهمية سوى موقعها الجغرافى وليبرروا هذه الهزيمة امام العالم المسيحى الذى بات ينتظر انتصارا جديدا وغنائم اخرى من العرب .

ولم يكن امام الأسبان المغيرين ازاء هذا الا الانسحاب من جربة بالبقية الباقية من الجيش فكان الجرى والتسابق والهروب الى السفن الراسية امام الشواطىء فى فوضى وخوف وذعر .

واقلع الاسطول الاسبانى من جربة يوم ٣١ اغوستو متجها نحو طرابلس ولم يصلها الا يوم ١٩ ستمبر ١٥١٠ بسبب عواصف شديدة اعترضته فى عرض البحر.

وبلغ عدد القتلى من الاسبان فى هذه المعركة ثلاثة آلاف وكان عدد الاسرى كبيرا جدا ومات فى المعركة دون قرشيا الطليطلى دوق البا وكثير من النبلاء الاسبان والقواد الكبار.

اما عرب طرابلس فانهم انتهزوا فرصة غياب الاسطول الاسبانى وهجموا على المدينة وتسلقوا الاسوار الا انهم لم يظفروا منها بطائل واضطروا الى الرجوع . وفى اكتوبر من السنة نفسها غادر الكونت بدرو مدينة طرابلس تاركا فيها ثلاثة آلاف جندى تحت قيادة دياجودى فيرا (Diego Di Vera) ولكن العواصف الشديدة التى لقيها بعد ابتعاده عن الشواطىء اجبرته على العودة بعد ان خسر خسائر فادحة فى السفن والرجال ونظم الكونت بدرو نافارو بعد استقراره فى طرابلس حملة اخرى على جزيرة قرقنة القريبة من جربة امام السواحل التونسية. للحصول على قواعد لتموين سفنه بالماء والاستعداد لحملات اخرى على جزيرة جربة ، وترك الكونت بدرو نافارو فى قرقنة بعد الاستيلاء عليها حامية تتألف من ٤٠٠ جندى كلفوا

بتنظيف الابار وحفرها والمحافظة على الجزيرة ، وقبل ان تباشر هذه الحامية اعمالها هجم سكان قرقنة عليها ومزقوا جنود الاسبان شر ممزق وفتكوا بهم فتكا ولم ينج منهم واحد ومات مع الجنود الكولونيل البندق جيرولاسو فيانيلو .

وبهذا انتقم سكان جربة وقرقنة لاخوانهم سكان مدينة طرابلس واخذوا بثأر اخوتهم الذين قتلهم الاسبان .

على ان الطرابلسيين لم يهدا لهم بال ولم يستسلموا للكوارث التى حلت بهم وببلادهم بل كانوا يذكون شرارة المقاومة والحرب ويدعون الى القتال وينادون بالجهاد فى كل بلدة حلوا بها. كانوا فى هذه المدة يضعون الخطط ويطلبون النجدة من اخوانهم وذويهم فى دواخل القطر لطرد العدو المشترك ، وتالفت مراكز عديدة للمقاومة والتسلح فى الجبل الغربي وغريان وتاجوراء .

وشعر السلطان الحفصى فى تونس ان الاسبان يكيدون له وانهم يتحينون الفرص للقضاء على بلاده ،واحتلالها عسكريا واقتطاع اجزائها جزءا جزءا رغم ما بينه وبين الاسبان من محالفات لذلك اخذ يحتاط ويستعد للدفاع عن بلاده ولم

يتوان السلطان ابو عبد الله محمد بن الحسن فى مد يد المساعدة للطرابلسيين حلفائه الطبيعيين ضد العدو المشترك بل يقال ان نية السلطان ابي عبد الله محمد الحفصي قد اتجهت الى تعبئة جيش من تونس والزحف به على طرابلس لاعادتها الى دار الاسلام .

وحكى القيروانى ان السلطان محمد بعث بجيش بقيادة محمد ابي شداد قاضي توزر بعد ان علم ان الشيخ عبد الله سلم طرابلس الى المسيحيين .

وسئم الكونت نافارو البقاء فى طرابلس بعد هذه الانهزامات المتوالية فى جربة وقرقنة فاقلع فى اسطول يتالف من ثلاثة وعشرين شراعا واربعة آلاف جندى ورحل الى جزيرة لامبيدوسا وفى فبراير من سنة ١٥١١ م اعاد عرب طرابلس الهجوم على المدينة وكان بها ما يقرب من خمسة آلاف جندى اسبانى ابقاهم الجنرال الاسبانى تحت قيادة دياجو دى فيرا .

ويدعى المؤرخون الاجانب ان عدد المهاجمين من العرب كان اربعين الفا وعلى الرغم من كثرة عددهم فانهم لم يقدروا على اجتياز الاسوار والتغلب على مقاومة الاسبانيين المحاصرين فى القلعة ووراء الاسوار .

وطلب القائد الاسبانى فى طرابلس دياجو دى فيرا من الجنرال الكونت بدرو نافارو فى لامبدوسا ان يمده بجيش ليفك الحصار وان يرشده الى اسهل الطرق لابعاد خطر العرب ، فاشار عليه بان يعد لغما كبيرا واعلمه بانه قادم اليه .

وانفجر اللغم قرب اسوار المدينة وذهب ضحيته كثير من المهاجمين كما سبب قتل كثير من الاسبان ومات فى هذه الحملة الكونت بدرو نافارو ولم يظهر اسمه بعد فى تاريخ طرابلس .

ولا نريد ان نناقش صحة هذا الخبر وعدد المهاجمين الذين عجزوا عن استعادة طرابلس وافتكاكها من ايدى العدو لان المبالغة ظاهرة بينة فى القصة كلها وكل ما نفهمه هو ان الهجوم على مدينة طرابلس فى فبراير من سنة ١٥١١ كان شديدا جدا على الاسبان وان العرب كانوا جادين فعلا فى افتكاك مدينة طرابلس وان حصون المدينة واسوارها وابراجها كانت منيعة قوية على رد هجمات كبيرة قام بها عدد من الجنود زعموا انه يقرب من الاربعين الفا .

والظاهر ان الجيش الذى بعث به السلطان ابو عبد الله محمد الحفصى والذى ذكره المؤرخ القيروانى جاء حقا الى

طـرابلس واشترك فى حملة فبـراير ١٥١١ م ولذلك امكن ان يجمع الطرابلسيون جيشـا يضمونه الى الجيش التونسى .

الفصل الرابع

حالة طرابلس في العهد الاسباني

يستفاد من الرسائل التى كان يبعث بها قنصل البندقية فى باليرسو الى حكومته ان الحالة فى طرابلس فى آخر سنة ١٥١١ كانت هادئة ورغم هذا الهدوء النسبى الذى ساد المدينة فى اواخر هذه السنة فان الاسبان اضطروا الى اجراء تحصينات اخرى فاعادوا بناء البرج والاسوار والقصر .

وجاء الى طرابلس سنة ١٥١٨ الحسن بن محمد الوزان وهو من مواليد غرناطة عاصمة المسلمين بالاندلس ثم فر من الاندلس على اثر مرسوم الملك الكاثوليكي وانتقل مع عائلته الى وزة بالمغرب وهناك تعلم اللغة والادب ثم رحل الى بلاد كثيرة يكتب ويؤلف عن كل ما يراه ، ووقع فى جزيرة جربة اسيرا فى ايدى القراصنة المسيحيين الذين حملوه الى روما وقدموه هدية للبابا ليون (Papa Leone) وتقبله البابا قبولا حسنا وقدره لعلمه وغزارة اطلاعه وسعة معلوماته واجبره ان يترك دينه

فاضطر الحسن بن محمد الوزان ان ينزل عند رغبة البابا فعمده وسماه البابا جوان ليون الافريقى .
وسكن جوان ليون الافريقى روما وصار من الحاشية البابا وية وتعلم اللغة الايطالية وترجم كتابه فى الرحلات بنفسه الى هذه اللغة . ويقول جوان ليون الافريقى (اى الحسن بن محمد الوزان سابقا) انه عندما قدم طرابلس سنة ١٥١٨ وجد المدينة تسترجع شيئا فشيئا عمرانها ونشاطها كما ذكر ان الاسبان قد حصنوا قصر طرابلس وجعلوا له اسوارا قوية وجهزوه بالمدافع . ويقول ايضا ان بيوت طرابلس جميلة بالنسبة لبيوت تونس وان الميادين منظمة والاسواق تمتاز بوجود كثير من المصنوعات وبالاخص النسيج ، ويذكر انه ليس فى طرابلس آبار او عيون ماء وان السكان يستعملون مياه الصهاريج ، وراى ليون الافريقى فى طرابلس كثيرا من المساجد وبعض المدارس ومستشفيات وملاجىء ، ويقول ليون الافريقى ان طعام السكان غير جيد وانهم يستعملون البازين غذاء اساسيا .

وزار جوان ليون الافريقى مدينة تاجوراء وقال انها كثيرة اشجار النخيل وكثيرة البساتين وانها صارت كبيرة عامرة بعد

احتلال الاسبان لطرابلس وفرار كثير من سكانها الى تاجوراء .

امتاز العهد الاسباني بتدهور النشاط التجارى وتوقف اغلب الحركات الاقتصادية التى اشتهرت بها طرابلس وذكرها المؤرخون الثقاة والرحالون الذين جاءوها من قبل لان الاسبان احتكروا سوق طرابلس لانفسهم وفرضوا رسوما جمركية عالية على الموردين الاوربيين الاخرين تبلغ هذه الرسوم ٥٠ ٪ مضافا اليها رسومات محلية اخرى ، فى حين انهم اعفوا التجار الاسبانيين من اى رسم جمركى فى مينائى طرابلس وبجاية ، وكان لهذه التصرفات من قبل الاسبان اثر سىء لا على التجار الطرابلسيين فحسب بل حتى على التجار البندقيين الذين كانت لهم مصالح تجارية واسعة مع طرابلس حتى اضطروا الى مخاطبة الامبراطور شارل الخامس فى سنة ١٥١٨ بواسطة سفيره فى البندقية عن الصعوبات الكبيرة التى صاروا يلاقونها للاتجار مع طرابلس .

ولا شك ان تجارة طرابلس فى هذه المدة وازاء هذه العراقيل التى وضعها الاسبان صارت تتدهور يوما بعد يوم بسبب فرض الرسوم الجمركية المرتفعة من جهة وبسبب حصار المدينة من قبل العرب من جهة اخرى وبقاء سكان المدينة وتجارها

منعزلين محرومين من الاتصال بغيرهم خارج القطر وداخله .
ومن الطبيعى ان تزدهر هذه التجارة فى موانىء اخرى بعد ان ضيق الاسبان الخناق على المدينة ولابد لتجار البندقية وتجار السودان ان يبحثوا عن محطة اخرى ليست خاضعة للاسبان على الساحل الطرابلسى ليتبادلوا فيها البضائع دون رسوم جمركية باهظة . وهناك لعب ميناء مصراته دورا هاما فى احياء ما كاد يموت من نشاط اقتصادى فى البلاد وصار تجار السودان والبندقية يرتادون ميناء مصراته

ولهذه الاسباب تناقص دخل الحكومة فى مدينة طرابلس تناقصا فظيعا ولم يعد ما يجبى كافيا لادارة البلاد والصرف عليها وسد حاجياتها .

وفى سنة ١٥١٣ ولى ملك اسبانيا على طرابلس دون هوجو دى منكادا (Don Hugo Di Moncada) نائب الملك فى صقلية، خلفا لدياجو دى فيرا واجرى له ١٢ الف دوكات سنويا لتغطية العجز المالى فى ادارة البلاد .

وبهذا صارت مدينة طرابلس تابعة فى ادارتها الى صقلية وارسل دون هوجو دى منكادا واليا على طرابلس من قبله جوان فرنشيسكو باترنو (Giovanni Francesco Paternò) وسعى

نائب الملك فى صقلية فى تعمير مدينة طرابلس بعائلات صقلية حتى يؤمن ملكه فيها ويوطد اقدامه ولذلك اصدر فى قطانيا من اعمال صقلية مرسوما ملكيا فى يوم ٢٦ اكتوبر ١٥١٣ يعلن فيه الى من يرغب فى الهجرة الى طرابلس انه يمنحهم بيوتا جيدة واراضى للزراعة وانه يعفيهم من الضرائب ويبرئهم من جميع الجرائم اذا كانوا قد ارتكبوا جرائم من قبل

وبموت فرديناند الكاثوليكى سنة ١٥١٦ والكردينال (Ximenes) توقف اهتمام الاسبان بالمسالة الافريقية لان خليفته شارل الخامس الاسبراطور المقدس كان منصرفا الى الاهتمام بالمعارك القائمة انذاك فى ايطاليا والى الخلاف الشديد بينه وبين خصمه فى الملك فرانصوا الاول .

ولا يذكر لنا التاريخ كثيرا عن طرابلس فى هذه السنوات بل طوى صفحات سنوات كثيرة دون ذكر شىء قليل او كثير عما كان يجرى فى طرابلس .

وفى سنة ١٥٢٥ انتشر فى طرابلس مرض الطاعون وفتك فتكا شديدا بالجنود الاسبانيين وبالسكان المدنيين .

وحاول الاسبان مرة ثالثة الاستيلاء على جربة فى سنة ١٥٢٠ وتوجه دون هوجو دى منكادا بمائة سفينه تقل ١٣٫٥٠٠

من المشاة و ٢٠٠٠ فارس الى هذه الجزيرة لاخضاعها والانتقام منها . وعندما تقدم الجيش فى الجزيرة هاجمه العرب فى شدة وعنف واحاطوا به من كل حدب وصوب وخسر المسيحيون ٦٠٠ رجل وكان الباقى مهددا بالابادة والفناء الكامل ولذلك ما كان من دون هوجو دى منكادا الا ان يسحب جيشه من جربة ويرجع خائبا كما رجع من قبله الاسبان .

اما شيخ طرابلس عبد الله بن شرف الذى حمل اسيرا الى باليرمو عند نزول الاسبان بالمدينة فقد اطلق سراحه بعد ١٠ سنوات قضاها فى الاسر . والظاهر ان الطرابلسيين الذين فروا الى الضواحى عند نزول الاسبان وكونوا جيوش المقاومة كانوا قد عقدوا العزم على ان لا يرجعوا الى بلادهم الا اذا اطلق سراح شيخهم ورجع الى وطنه . ولم يستمع نائب الملك دون هوجو الى طلب اللاجئين الطرابلسيين فى بادىء الامر وحاول تعمير المدينة بالمسيحيين الصقليين ولكنه اضطر اخيرا الى اطلاق الشيخ عبد الله لاستخدام نفوذه فى تسوية المشاكل السياسية . ورجع على اثر رجوع الشيخ عبد الله خمسمائة عائلة طرابلسية الى مساكنها داخل المدينة وبدأت الحياة المدنية تتحسن يوما بعد يوم . وفى هذا الوقت بدأ يتزايد نفوذ القراصنة العثمانيين

على سواحل افريقيا الشمالية مهددين سلطة الاسبان على طرابلس .

والقراصنة العثمانيون هم جيش الطليعة للامبراطورية العثمانية على هذه السواحل ، فهم الذين هيأوا هذه الاراضى للسيادة التركية ، وبدأ اهتمام الاتراك فى شئون الحوض الغربى من البحر الابيض المتوسط منذ اوائل القرن السادس عشر اى عندما بدأت اسبانيا حملتها على الشمال الافريقى وبدأت اولى السفن التركية تبرز فى مياه طرابلس سنة ١٥١٢ واخذ اسم خير الدين برباروسا يظهر الى الوجود .

من هو خير الدين برباروسا ؟

كان يعقوب بن يوسف ينيشيريا من الروملى وكان له اربعة اولاد هم اسحاق وعروج وخسر والياس . فاختار كل منهم مرتزقا للمعيشة ووقع اختيار عروج على القرصنة وما عتم ان ظهر مظهرا كبيرا واستخدمته الدول الاسلامية لارهاب القوى النصرانية المتهجمة على سواحلها والتحق خسر باخيه وعرف من ذلك العهد بخير الدين ولقب كلاهما برباروسا اى الاشقران

وفى هذه الاثناء كانت الدولة الزيانية (فى الجزائر) قد مالت كل الميل الى السقوط واستولى الاسبان على المرسى الكبير ووهران وبجاية وغيرها وكانت ولاية قسطنطينة تابعة للحفصيين

وعليها ابوبكر الحفصى ، وقد تعاهد الاشقران مع بنى حفص ان يعملا على حسابهم وجعلا مركزهما بجزيرة جربة وحلق الوادى على مقربة من الحضرة الافريقية ، وطلب ابو بكر من الاشقرين ان ياخذا له مدينة بجاية من الاسبان ولكنهما لم يفلحا فى انتزاعها ثم انهما هجما على مدينة جيجل التى كان بها مركز تجارى للجنويز فأخذاها باعانة الجزائريين. ولما راى البربر من كتامة نجاح عروج بجيجل بايعوه الامارة فكون منهم الجيوش وهجم بهم على بجاية للمرة الثانية وبلغها فى شهر اغوسطو ١٥١٤م وكان قائدها الاسبانى دون رامون كيرود ، ولم ينجح عروج هذه المرة ايضا واضطر الى الانسحاب

وهجم عليها للمرة الثالثة فى ربيع ١٥١٥ وادخل اسطوله بنهرها ووفدت عليه العسكر من البر تحت قيادة الامير الحفصى عبد العزيز امير قلعة ابى العباس واحمد القاضى الذى اسس امارة بجبال الجرجرة سنة ١٥١١ ودام حصار بجاية ثلاثة اشهر خسر فيها عروج العدد الجم من جنوده واضطر الى الجلاء ، ولما كانت مياه نهر المرسى قد جزرت لم يستطع ان يقلع بسفنه فدمرها وذهب برا الى بجاية وهنالك ارسل اليه السلطان سليم الاول اربعة عشر سفينة جزاء له على اعماله التى قام بها .

وتقدم الى الجزائر واخذها ورفع على حصونها علمه الاخضر والاصفر والاحمر وضرب السكة باسمه واقام بها كملك مستقل سطاع ، وعاثت جنوده فيها فسادا فمل اهلها وطاتهم واستنجدوا باسبانيا فلبت مطلبهم وارسلت بعثة حربية فى شهر سبتمبر ١٥١٦ تحت قيادة دياجو دى فيرا ونزلت جنوده بباب الوادى من المدينة يوم ٣٠ سبتمبر ، وتناوشوا مع الاتراك مدة يومين . ثم ان ريحا شرقية هبت فاصبحت خطرا على الاسطول الاسبانى واجبر دى فيرا على الانسحاب ففتح عروج ابواب المدينة وهجم على الاسبان واعانه العرب على ذلك حتى لم يبق من الجيش الاسبانى الفار الابعض مئات التحقت بالسفن التى كسرت غالبها الصخور

وقتل عروج فى معركة غربى تلمسان فقام بالامر بعده اخوه خير الدين فاستنجد بسليم الاول لمحاربة النصرانية فوجدها فرصة جديدة لاذكاء نار الجهاد ضد اوربا المتعصبة المتهجمة على سواحل الاسلام ودخلت الجزائر التابعة لخير الدين تحت تبعية الاستانة ولقب خير الدين ببلار بك وخوله السلطان الاستقلال الداخلى وحق ضرب السكة وارسل اليه السلطان نجدة كبيرة ، وارسلت اسبانيا بعثة عسكرية لمداواة الكلوم التى اصابتها وجعلتها تحت قيادة هوجو دى منكادا فى صيف

١٥١٩ واخذ هذا القائد كدية الصابون بالجزائر واستقر بها ثم ان ريحا عاصفة هبت على الاسطول الاسبانى فدمرته فاهتبل خير الدين هذه الفرصة لكى يقضى على الحملة القضاء الاخير فقتل ما قتل واسر ما اسر ولم يفلت من الاسبان الا القليل .

وقوى اسطول خير الدين باربا روسا وصار ينشر الرعب فى جميع انحاء البحر الابيض المتوسط ويهدد الممتلكات الاسبانية فى افريقيا وتعذر على السفن المسيحية عبور مياه هذا الحوض .

وحاول خير الدين احتلال جربة سنة ١٥٢٠ ، ولا شك ان قوة اسطول خير الدين الذى بلغ ٨٠ قطعة واندفاعه على القطعات الاسبانية جعلت مركز الاسبان فى طرابلس والمغرب فى خطر دائم

ومن جهة اخرى كان الطرابلسيون يضيقون على الاسبان ويهجمون عليهم كلما وجدوا قوة وضيقوا عليهم ايضا فى التموين والاتجار مع القرى القريبة . ولم يسكن شيخ المدينة عبد الله الى الاسبان ولم يخضع لنفوذهم كثيرا بل فر من المدينة والتحق بالمجاهدين فى تاجوراء لينظم هجوما عنيفا على الاسبان ولكن خوف الاسبان الشديد كان من اشتراك الاسطول العثمانى فى عمليات غزو المدينة خصوصا وانهم سمعوا غير ما مرة ان السلطان سليم الاول عازم على احتلال طرابلس .

وما كان من الاسبانيين ازاء هذا الخوف من الوقوع فى ايدى العرب او الاتراك الا ان يوجهوا اهتمامهم الى تحصين المدينة وقصرها وميناءها بعد ان هدموا بيوت المدنيين العرب واستعملوا حجارتها فى بناء القصر والقلاع . ووضعوا بعض المدافع الكبيرة على الحصون .

جددت القلعة الشرقية من القصر المطلة على الشارع المؤدى الى زاوية الدهمانى وسيدى الشعاب وسميت هذه القلعة باسم القديس جاكو وسميت القلعة الثانية التى تشبه فى شكلها مقدمة السفينة والتى تشرف على شارع العزيزية باسم القديس جورج اما القلعة المبنية فوق المدخل الرئيسى للقصر فسميت باسم القديسة بربرة (S. Barbara) والى جانب هذه التحصينات التى اجريت على القصر توجد سلاسل اخرى من الاستحكامات عند مدخل الميناء بنيت على الجزائر الصغيرة التى وصل بعضها ببعض وسوى بها رصيف الميناء ، واقام الاسبان حيث توجد اليوم المحطة اللاسلكية البحرية فى باب البحر برجا سموه باسم القديس بطرس ويسمى هذا البرج ايضا بالبرج الاسبانى وهو يحرس المدينة من الجهتين الشمالية والغربية .

وكان تل الظهرة المرتفع قليلا اكبر خط يهدد المدينة

من الجهة الجنوبية ولذلك قامت اكبر التحصينات فى القصر والاسوار من هذه الجهة .

ولمدينة طرابلس فى العهد الاسبانى اربعة ابواب قامت على كل باب ابراج عالية حصينة .

الاول : باب زناته وهو المسمى اليوم الباب الجديد وسمى بهذا الاسم لانه كان يؤدى الى مضارب قبائل زناته البربرية ويؤدى الى جنوب غربى المدينة .

الثانى : باب البحر، وهو كائن فى الشمال الشرقى من المدينة بالقرب من قوس مركوس اوريليوس جهة مسجد سيدى عبد الوهاب وسمى بهذا الاسم لانه يجيز الى البحر والميناء

الثالث : بابان احدهما خارجى واقع فى اول سوق المشير اليوم والثانى فى آخر هذا السوق قرب الساعة التركية التى بناها على باشا ويسمى هذا الباب بباب هوارة لانه يجيز الى قبائل هوارة البربرية الضاربة شرق المدينة وجهة الخمس ويسمى هذا الباب ايضا بباب عبد الله ، وكثير من المؤرخين مثل التيجانى اطلقوا عليه باب البر او باب الستارة او باب المدينة .

الرابع : باب العرب ، يفتح نحو الجنوب واطلق عليه الاسبان

اسم باب النصر والظاهر ان هذا الباب كان مفتوحا حيث باب الحرية الذى فتحته الحكومة العثمانية سنة ١٩٠٩ م

وشعر الاسبان ان هذه التحصينات غير كافية لرد هجوم تركى كبير ولذا صرفوا كثيرا من عنايتهم لاضافة ابراج اخرى للدفاع عن الميناء فشرعوا فى بناء برج المندريك عند مدخل الميناء حيث كانت توجد منارة ميناء مدينة طرابلس .

اما القصر فكان اشبه شىء بجزيرة يحيط بها الماء من جميع الجهات ويمتد بين القصر وبين المدينة جسر متحرك يمد نهارا ويرفع ليلا .

الفصل الخامس

فرسان القديس يوحنا في طرابلس

بدأت هذه المؤسسة حياتها كمنظمة خيرية دينية ، وكان لها فى مدينة القدس ، قبل الحروب الصليبية ، مأوى لمساعدة المحتاجين خصوصا الحجاج المسيحيين الذين يزورون فلسطين، وعندما نشبت الحروب الصليبية حولت هذه الهيئة الى منظمة عسكرية تعنى بالاخص بمعالجة الجرحى فى المعارك الحربية .

وعندما انتصر صلاح الدين الايوبى على الصليبيين طرد من القدس فرسان القديس يوحنا مع من طرد من الصليبيين ، فنقلوا مركزهم الى عكة بفلسطين وبقوا فيها الى سنة ١٢٩١ م حيث طردوا منها ايضا فنقلوا مركزهم الى جزيرة رودس .

واسس الفرسان فى جزيرة رودس مملكة مسيحية تحت رعاية البابا وحماية الملوك المسيحيين ثم مدوا نفوذهم على الجزر القريبة من رودس (جزر الدوديكانيز) .

وقد اجتنبت هذه المؤسسة مبادءها الانسانية التى اسست من

اجلها وتحولت الى عصابة طابور خامس فى فلسطين ثم انقلبت الى عصابة من القراصنة فى الحوض الشرقى من البحر الابيض المتوسط وهذا ما دعا صلاح الدين الايوبى الى طردهم من بلاده

واثرة رؤساء هذه المنظمة وحبهم للسيطرة والنفوذ ومطامح الملوك المسيحيين ورغبة البابا فى توسيع نفوذه كل ذلك رمى بالفرسان المسيحيين ، فرسان القديس يوحنا ، الى حرب مع المسلمين لا قدرة لهم عليها وجعلهم يتحولون من طريقهم الانسانى الى حرب ودماء وموت .

استقر فرسان القديس يوحنا فى رودس وبدأوا يعرقلون حركات الاسطول العثمانى فى بحر الارخبيل والحوض الشرقى كله ولم تكن لديهم قوة لمقابلة الاسطول العثمانى وجها لوجه بل كانوا يلجأون الى القرصنة ، ولم يكن الفرسان فرسانا كراما بالمعنى الصحيح وانما كانوا انذالا يترصدون لسفينة خرجت وحدها فيفتكون بها ويصطادونها ويدخلون موانئهم كلما رأوا سفن الاتراك ملأت عليهم البحر .

ولا شك ان هذه الاستفرازات اقلقت ملوك بنى عثمان ، وسئم سليم الاول من هذه المضايقات واراد ان يفتك بقراصنة القديس

يوحنا ويطهر البحر منهم ، فطوق الجزيرة باسطول ضخم وجيش كبير يبلغ عدده مائتى الف جندى حاصروا الجزيرة ستة اشهر واخيرا سقطت جميع القلاع والحصون فى يد سليمان العظيم واستسلمت القوى المسيحية له . كان ذلك فى ٢٦ ديسمبر ١٥٢٢ م.

ولم يكن سليمان جبارا سفاكا فقد وهب فرسان القديس يوحنا ارواحهم واموالهم ولم ينتقم منهم جزاء ما كانوا يعملون بل سمح لهم ان يغادروا الجزيرة دون اذى او ضيم وترك لهم الحرية الكاملة فى اختيار البلاد التى يقصدونها .

وفى الليلة الاولى من عام ١٥٢٣ ركب الفرسان سفنهم وفى قلوبهم اسى وفيها حسرة وبين جوانحهم هوى لهذه الجزيرة الجميلة التى هموا بتركها الى الابد ، وتجيش فى انفسهم ثورة وميل الى الانتقام من المسلمين ، ولكن كيف ذلك ؟

فى هذه الليلة وقف سليمان العظيم فوق اعالى ابراج الجزيرة يشيع بنظره سفن المسيحيين ويمتع ناظريه بقلاعهم تبتعد حائرة فوق الامواج المضطربة على شواطىء رودس الجميلة .

واختفت هذه السفن وراء الافق وكان يخفق على سفينة القيادة علم رسمت عليه صورة العذراء ذات الالام السبعة

وبين يديها جثمان ولدها المقدس رمزا الى آلام الفرسان وشدة جزعهم وقد عبرت الدموع عن هذه الالام وتلك الفاجعة .

وبسقوط رودس ، وهى آخر جبهة حصينة ، للدفاع عن المسيحية الشرقية من الضغط الاسلامى ، فقدت منظمة فرسان القديس يوحنا اجمل مراكزها واقواها ، ففيها خمسة عشر برجا وقصر منيف لسكنى رئيس المنظمة الذى كان يسمى بالمعلم الاعظم . وكان فى رودس ايضا مدارس فخمة وكنائس عظيمة وقصور للفرسان وبيوت لرجال السلاح ، وتقوم خمسة قلاع قوية لحراسة الجزيرة وبها ميناء مزدوج ، وقراها خصبة غنية .

اتجهت سفن فرسان القديس يوحنا بعد مغادرتهم للجزيرة نحو ميناء شيفيتافيكا (Civitavecchia) بايطاليا بدعوة من البابا كليمنت السابع (Clemente VII) وشيدوا كنيستهم فى فيتيربو قرب روما .

الا ان الفرسان كانوا يخافون ان البقاء فى ايطاليا يجعلهم بعيدين عما يطمحون اليه من السيطرة والسيادة والحكم ، وليس فى بقائهم فى حماية البابا ما يشبع رغباتهم الملحة فى اقامة دولة صليبية للقرصنة ولمطاردة سفن المسلمين فى البحر

الابيض المتوسط، ولذلك راى رئيس هذه المنظمة الاب فيليب فليير دي ليسل آدام (Fra Filippo Villiers de L' Isle Adam) ان يخاطب شارل الخامس امبراطور المملكة الرومانية المقدسة ليرجوه ان يقتطع للمنظمة جزيرة مالطة وقوزو لتكون مركزا يشن منه الغارات على البلاد الاسلامية حتى تسنح لهم الفرصة فينتقلون الى قاعدة ثانية اكثر ملاءمة لهم .

ولا يخفى على فرسان القديس يوحنا طبيعة جزيرة مالطة كما لا يخفى عليهم قوة طبيعتها وصعوبة السكنى فيها ، اذ تعتمد مالطة فى مؤونتها على صقلية والبلدان الاخرى ، وقراها فقيرة غير صالحة للزراعة .

وليس امام الفرسان امل للحصول على مركز اكثر ملاءمة فى ذلك الوقت ، وتقبل الامبراطور شارل الخامس طلب الفرسان بالموافقة والرضا واظهر استعدادا للتنازل عن مالطة وقوزو لهم على شرط ان تتعهد منظمة فرسان القديس يوحنا بالدفاع عن قصر ومدينة طرابلس . ويرمى الامبراطور شارل الخامس بتنازله هذا الى تكوين جبهة دفاع اولى عن ممتلكاته فى جنوب ايطاليا والتخلص بصورة مشرفة من طرابلس وقد صارت تكلف خزينته اثنى عشر الف دوكات سنويا ، على ان

احتفاظه بها سبب لديوانه العسكرى مشاغل كبيرة اذ فى سقوط طرابلس فى ايدى العرب او الاتراك ضياع لهيبته وخسران لنفوذه امام العالم المسيحى .

ولم يكن هذا العرض السخى من طرف الامبراطور شارل الخامس قد ارضى فرسان القديس يوحنا ، بل قابلوا الشرط بشىء من الاستعاض والفتور ، وادركوا ما كان يرمى اليه الامبراطور بذلك وهو زجهم فى حرب لا هوادة فيها ولا نهاية لها مع المسلمين العرب او الاتراك الذين كانوا يتربصون كل فرصة سانحة للانقضاض على المدينة وافتكاكها واسترجاعها الى اصحابها الطبيعيين . وكان الفرسان يرغبون فى بقاء الاسبان فى طرابلس ليؤمنوا احتفاظهم بالجزيرة وابتعادهم عن خطر هجوم تركى عليهم فى الجزيرة . هذا وفى الوقت نفسه لم يكن فى استطاعة الفرسان ان يدافعوا عن مدينة طرابلس وان يحموها من هجوم عربى مسلح فضلا عن هجوم تركى كبير لوقوع هذه المدينة بعيدة عن ديار المسيحية ولعدم امن الطرق البحرية بسبب تفشى القراصنة العرب والاتراك فى الحوضين الشرقى والغربى من البحر الابيض المتوسط وازدياد نشاط القائد البحرى الكبير خير الدين بربار وسا .

وتردد الفرسان فى قبول ما عرضه الامبراطور شارل الخامس عليهم وقرروا اخيرا ان يرسلوا بعض الفرسان لزيارة مالطة وقوزو وطرابلس لدراسة هذه النقاط الثلاثة ولكتابة تقرير عن مواردها وخيراتها وحصونها وابراجها واساليبها الدفاعية ومواقعها الاستراتيجية قبل التعهد بقبول الدفاع عنها .

واختار مجلس المنظمة ثمانية من الفرسان للقيام بهذه المهمة .

ولم تكن مدة اقامة الفرسان الثمانية فى طرابلس طويلة ولكن الوصف الذى كتبوه عن طرابلس كان دقيقا ، وقد جاء فيه وصف مفصل عن طرابلس فى آخر العهد الاسبانى وقد يكون من الافضل نقل بعض النقاط مما جاء فيه ليلقى لنا بصيصا من النور على حالة طرابلس الحقيقية فى هذا العهد .

جاء فى هذا القرار :

« طرابلس صافية الاديم وهواؤها صحى وهى غير معرضة للامراض السارية ، ويبلغ محيط سورها ٣٧٢٨ خطوة ثلثاه يطل على البحر والثلث الاخر يشرف على البر .

وقد هدم من الاسوار مائتا خطوة لتحصين القصر وان الباقى من الاسوار مبنى على الاساليب القديمة ويهدده الخراب .

ويبلغ علو الاسوار قصبتين ونصف قصبة (اى
تقـريبا) ، اما الخنادق فضيقة وغير عميقة وسعة
والمبـانى مهدمة .

وفى طرابلس آبار وصهاريج للمياه وتشرف على الم
يهدد موقعها الميناء والقصـر على وجه الخصوص
الظهرة) ومن المتحتم الاعتناء باعادة بناء الاسوار
وفقا للاساليب الحديثة ولذلك يجـب استجلاب مو
من حجارة وجيـر وبلاط مـن بلاد اخـرى .

ولم يدخل الفرسان الى القصـر بسبب انتشار مر
بل قاسوا محيطـه من الخارج فكان الجانب الذى
ميدان السراى اليوم يبلغ طوله ١٦٠ خطوة اما الج
يشرف عـلى سوق المشير اليـوم فيبلغ مائتى خطوة
اسوار القصـر خمس قصبـات اى ١٢ متـرا تقريبـا

ويحيط بالقصـر خندق عرضه ٤٤ خطوة وعمقه
ويوجد خارج القصر من الجهة الشرقية بئر كما توجد
داخل القصـر مياههـا ملحـة .

وجـاء فى قرار الفـرسان الثمانية :

وقد نخرت قواعد القصـر من مياه البحر ، وهو يصب

جيد للوالى وحاشيتـه ورجال الجيش ولكنه فى حاجة ماسة الى اصلاحات كبيرة وترميمات ضرورية وفى القصر بعض المطاحن اليـدوية الجـيدة .

وتعرض قرار الفرسان الى الحالة المالية فى البلاد وقد جاء فيه :

يتكون دخل طرابلس من ١٠ ٪ رسومات جمركية على البضائع ويؤخذ دوكات واحد عن كل رقيـق يخرج من المدينة او يدخل اليها . وكان مجموع الدخل الذى قبض فى ثلاث سنوات يتراوح بين سبعة وثمانية آلاف دوكات .

اما عن ميناء طرابلس فقد جاء فى القرار :

« وميناؤها (اى طرابلس) جيد لاسطول صغير ، وتهب عليه الرياح الشمالية الشرقية ولا تقيه من الرياح الغربية الا بعض الجـزر الصغيـرة »

ولم يغفل الفرسان ذكر العرب الذين اضطرتهم ظروفهم الخاصة الى البقـاء داخل اسوار المدينـة :

وفى طرابلس ستون عائلة عربية فى حيازتهم ٢٥ فرسا يتخـذونها لحماية المدينة وهم مخلصون اخلاصا شديدا لصاحب الجـلالة . ويتخذ العرب خيـولهم للغزو على القـرى القريبة ايضا ويقتسمون الغنائم فيما بينهم دون ان يدفعوا للحكومة شيئا .

واخيرا جاء فى القرار ان الامبراطور يمد طرابلس بكل ما تحتاج اليه من الاسلحة والدخيرة وانه يحول اليها اثنى عشر الف دوكات سنويا لرواتب الجند .

ووجد الفرسان فى القصر كثيرا من المدافع .

بهذا عرض الفرسان المبعوثون لتفقد الحالة فى طرابلس ما لاحظوه فيها وقد اظهروا بجلاء نقط ضعف المدينة والخسائر التى يلزم التعهد بها لجعلها صالحة للاقامة وهى طبعا اكثر بكثير من منافعها لهم اذا ما قرروا استلامها من الامبراطور وقبلوا شروطه .

اما مالطة فانها على الرغم من قلة مواردها الطبيعية والزراعية واحتياجها الشديد فى حاجياتها الى البلدان الاخرى الا انها اكثر ابتعادا عن الاعداء وموقعها المحصن وقربها من البلدان المسيحية يجعلها بعيدة عن دائرة مطامح الاتراك ومحاولاتهم لغزوها خصوصا وان فرسان القديس يوحنا قد فقدوا قوتهم ونقص عددهم وخارت قواهم المادية والمعنوية عند الدفاع عن رودس التى اخرجهم منها السلطان سليمان ، وعلى اى حال فليس لديهم قوة كافية للمحافظة على بلاد مثل طرابلس .

لهذه الاسباب اخذ الفرسان يسوفون للامبراطور رغم الحاحات

شارل الخامس ودعوته اياهم بالاسراع بتوقيع وثيقة التعهد واستلام الاماكن الثلاثة التي وعدهم بها . ولم يسع المنظمة امام هذا الالحاح الشديد من طرف الامبراطور شارل الخامس الا ان ترضخ لمطلب الامبراطور المقدس ، وجاء في المذكرة التي بعث بها الفرسان الى الامبراطور .

ان هذه المنظمة التي وجدت ان الحظ يعاكسها في جميع ما اقدمت عليه ، فانها تقبل الجزيرتين مالطة وقوزو ، اذ انها لم تجد مكانا آخر ملائما تتخذه مركزا لها لتعلن الحرب التي لا هوادة فيها على المسلمين :

وجاء في المذكرة المذكورة ايضا : « وبما ان جلالتكم القيصرية عندما طلب منكم التنازل عن هاتين الجزيرتين طلبتم ان نقبل معهما مدينة طرابلس بكل ما يتبعها ، فاننا قبلنا هذا على الرغم من ضعف قوى المنظمة رغبة منا في خدمة جلالتكم القيصرية . وفي الوقت نفسه نامل ان تكونوا لنا سندا وعونا حيثما لا تكفي قوانا في خدمة الله للاحتفاظ بتلك الاماكن وحماية المنظمة نفسها »

وتسلم الامبراطور شارل الخامس هذه الرسالة وهو في بولونيا (BOLOGNA) من اعمال ايطاليا وقد جاء اليها ليتسلم

التاج الامبراطورى من البابا كليمنت السابع . وقبل ان يغادر الامبراطور ايطاليا قاصدا المانيا وقع على وثيقة تسليم الاماكن الثلاثة : مالطة ، قوزو وطرابلس لمنظمة فرسان القديس يوحنا ، وقد جاء فى وثيقة تسليم الاماكن الثلاثة المكتوبة باللغة اللاتينية :

« قد وهبنا القصر والاماكن وجزائرنا فى طرابلس ومالطة وقوزو الى منظمة فرسان القديس يوحنا لاحياء المنظمة ولاستقرارها ، وهى هبة خالصة عن رضامنا واقتطاعا دائما شريفا حرا ، مقابل عقاب واحد تسلمه المنظمة فى عيد جميع القديسيين (١ نوفمبر) من كل عام فى يد نائب ملك صقلية .

وجاء فى الوثيقة ان الامبراطور يسمح للفرسان بابقاء الاسلحة والمدافع الموجودة فى قصر طرابلس وعلى قلاعها لمدة ثلاث سنوات ، لاستعمالها ضد الاعداء الا اذا راى صاحب الجلالة القيصرية تمديد الاجل .

ووافق مجلس منظمة الفرسان على الوثيقة القيصرية فى ٢٥ يوليه من سنة ١٥٣٠ م وجاء وفد منهم الى طرابلس ليستلم المدينة من واليها فرديناندألركون (Ferdinando Alarcone) وليأخذ فى عهدته المدافع والدخيرة الموجودة والتى تعهدوا بردها الى الامبراطور بعد ثلاث سنوات ، ثم لحق هذا الوفد

القسيس قسباري دى سنقوسا (Fra Gaspare di Sanguessa) وهو اول الولاة على طرابلس من قبل فرسان القديس يوحنا وجاء معه بعض الفرسان والعساكر وشيء من المؤن. بهذا انتهى الحكم الاسباني المباشر على طرابلس الذى دام عشرين سنة.

وقد اندفعت اسبانيا لاحتلال طرابلس كما بينا سابقا لغرض السيادة على البحر الابيض المتوسط ولطرد المسلمين من الشمال الافريقى بسبب التيارات الدينية التى كانت يومئذ قوية ملتهبة فى اسبانيا المسيحية ، ولكن حوادث اوروبا التى آنذاك واهتمام اسبانيا بمستعمراتها فى العالم الجديد (امريكا) كل هذه العوامل جعلتها تنصرف عن التفكير فى توطيد اقدامها على سواحل افريقيا الشمالية .

وكل ما خلفه الاسبان من آثار فى طرابلس يتلخص فى اعادة بناء قصر المدينة وتقوينه ، ولم يستطع الاسبان مدة اقامتهم ان يجتازوا الاسوار ويتصلوا بالقرى القريبة وان يفرضوا سلطانهم عليها بل بقوا طوال هذه المدة محاصرين داخل الاسوار مضطرين الى استجلاب كل حاجياتهم من الخارج .

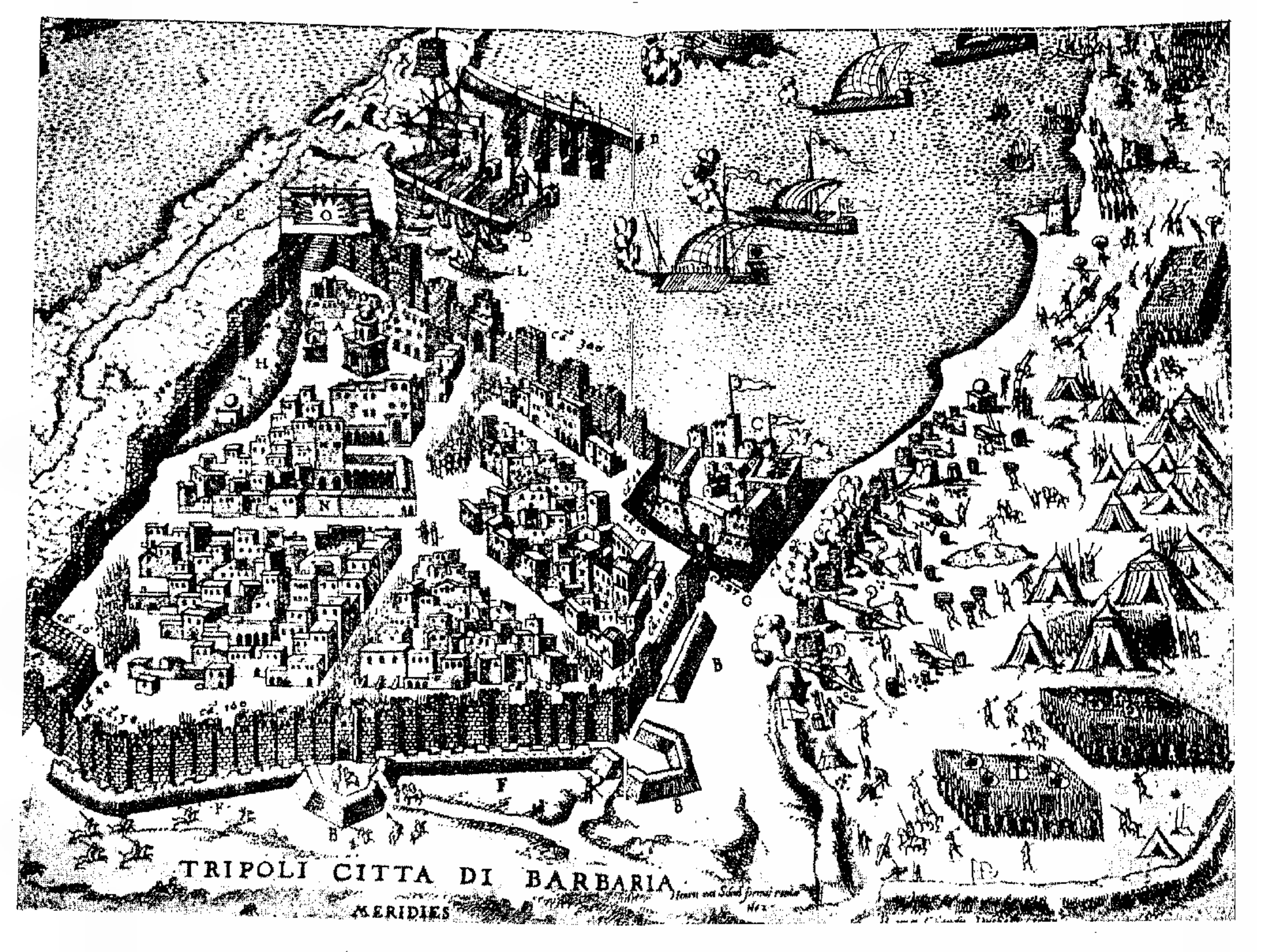
ولولا هذه الاضطرابات التى شغلت بها اسبانيا فى اوربا لقضى على الاسلام والعروبة فى هذه الديار ولما بقى فى الشمال

الافريقي كله مآذن تنادى الى دين الله ولكان مصير طرابلس واخواتها على هذا الساحل مصير الأندلس وصقليـة .

ولا شك ان قبول فرسان القديس يوحنا مسئولية الدفاع عن طرابلس يعتبر خطوة جريئة منهم امام العالم المسيحى الذى بات ينتظر ان يرى ذهب طرابلس وخيراتها ويحلـم بالثروة الكبيرة التى سينالها،ونحن نعلم ان هذه المنظمة كانت عاجزة فى ذلك الوقت حتى عن الدفاع عن مالطة وقوزو اذا ما تعرضت لغزو غربى او تركى وليس لديها من القوة والمال ما يساعدها على بسط نفوذها كما كان ينتظـر منها بل حتى على الاحتفاظ بمـا وهب لهـا .

لم تكن الطريق امام فرسان القديس يوحنا ممهـدة مفروشة بالازهار ، وانما كان امامهم اعداء كثيرون : العرب والاتراك الذين كانوا لا يفترون عن اصطياد سفن المسيحيين ويتربصون بهم ويعرقلون انتقالهم بين جنوب اوربا وشمال افريقيا ، كما ان عرب ضواحى طرابلس كانوا يتحينون الفرص لينقضوا على المدينـة وليخلصوا بلادهم من الاعـداء .

ولم يكن فرسان القديس يوحنا يعتمدون كثيرا على مساعدة وامدادات الملوك والامراء المسيحيين لان اوروبا آنـذاك لم



طرابلس سنة ١٥٥٩ (نسخة محفوظة في مخزن اوراق فلورنسا)

تكن فى حالة استقرار وكان التطاحن والشقاق كبيـرا بين الامراء والملـوك .

تقلد الفرسان مسئولية الدفاع عن طرابلس وليس بايديهم مال يساعدهم على بناء وترميـم وتحصين القصـر والابراج والقلاع والاسوار او زيادة عـدد الجنود والفرسان ، ولم يتعهد الاسبراطور لهم بمال يعطيهـم اياه ، بل رفع منهـم حتى ما كان مخصصا لمدينـة طرابلس ، ولهذه الاسبـاب اضطر المعلم الاعظم ان يرهن ويبيـع بعض ممتلكات المنظمة فى ايطاليـا ليبدأ بهـا ادارة دولتـه الجـديدة

ولـم تقـف مضـاعب الفرسان عند هذا الحد بل تجاوزتـه الى ما هو اشد ، فقد صارت تعامل من قبل دويلات الاسبراطورية المقدسة كجزء مستقـل تخضع صادراتها ووارداتها لنظام الضرائب الجمركية العامة . فقد فرض نائب الملك فى صقلية الضرائب على كل ما تشتريه المنظمة من حبوب وادوات بناء واسلحة وغير ذلك . وهدد الفرسان بالانسحاب من طرابلس وباخلائهـا اذا لم ترفع عنهم الضريبة الجمركية فى موانىء ايطاليـا .

وتوسط البابا كليمنـت السـابع لـدى الاسبراطور شـارل الخامس فاعترف لهم بحق الاشتـراء من الموانىء التابعة له دون

ان تكون بضائعهم خاضعة للرسوم الجمركية المفروضة على الصادر والوارد من البضائع .

وعندما استلم الاب سنقويسا (SANGUESSA) ادارة طرابلس عزم على ان يخضع قبائل العرب القريبة مثل جنزور وسوق الجمعة وتاجوراء ، فقام بغزوات صغيرة هنا وهناك وكان الغرض من هذه الغارات هو نشر الخوف والرعب بين العرب وحتى يشعرهم بما لديه من قوة وعتاد حربي وفى الوقت نفسه ليفتح الى المدينة بابا كانت فى اشد الحاجة اليه من مدة طويلة ذلك هو الاتصال بالدواخل ومبادلة السلع والانتفاع بما تنتجه القرى والبساتين من حبوب وفواكه وخضروات وحيوانات.

بدأ الاب سنقويسا يناوش عرب الضواحى وجرت بينه وبينهم معارك واستطاع ان يخضع قرية جنزور ويجبرها على دفع الجزية.

الفصــل السادس

فرسان القديس يوحنا بين العرب والاتراك

توفى فى اوائـل فبـــراير من سنة ١٥٣١ م سولاى محمد ملك تونس مسموما على يد زوجته لتستخلـف من بعده ابنهـا سولاى الحسن ولتبعد عن الملك اخوته من ابيه . وعندما استقرت قدم سـولاى الحسن على الملك واخضع جميـع ممتلكات ابيه بعث الى الوالى المسيحى فى طرابلس بواسطة جوان الرابطى وهو جندى مسيحى فى خدمة ملك تونس يطلب صداقة منظمة فرسان القديس يوحنا وعقد معاهدة حسن جوار بين البلدين ، وبعث الوالى المسيحى فى طرابلس الى سولاى الحسن يخبره بانه خاطب فى ذلك حكومتـه . ويرجوه ان لا يبعث بالسلاح الى تاجوراء حتى يتم ابرام معاهدة الصداقة وحسن الجوار بين الدولتـين .

ولم ينج من ابناء سولاى محمد سوى سولاى رشيد الذى التجأ عند خير الدين بربا روسـا ملك الجزائر فى ذلك الوقت هاربا من الموت الذى اصاب اخوته بعد سوت ابيه طالبا من خير الدين ان يساعده على استرجاع عرشه الذى سلبه منه اخوه سولاى

الحسن صديق المسيحيين وحليفهم . وتحمس خير الدين ولم يترك فرصة الاستيلاء على تونس واخضاعها ولذلك اركب جنوده السفن وحمل مولاى رشيد معه ونزل على تاجوراء واحتلها بعد ان طرد منها مؤيدى مولاى الحسن ورجاله وابقى فى تاجوراء من قبله احد قواده ، وكان يدعى هذا القائد ايضا «خير الدين» ويلقب « كرمان » و وابقى مع خير الدين بعض القطعات البحرية واسلحة وجنودا .

لم يكن بتاجوراء ميناء صالح لايواء السفن ولذلك اسرع «كرمان» لاعداد حوض صغير لسفنه وبنى برجا هنالك ليدافع به عن السفن الراسية فى هذا الميناء وادرك ان اقامته دون القيام بمثل هذه التحصينات الاولية الضرورية قد تعرضه الى فقدان هذه القاعدة الهامة لمحاربة المسيحيين وتكون سفنه ورجاله معرضة للوقوع تحت رحمة فرسان القديس يوحنا المقيمين فى طرابلس - واعلن خير الدين على المسيحيين الحرب فى البر والبحر واصطاد السفينتين اللتين يملكهما الفرسان فى طرابلس بكل ما فيهما من رجال وعتاد ، بهذا ضعف نفوذ الفرسان على القرى الطرابلسية ولم يعد العرب يدفعون لهم ما فرضوه عليهم من جزية وتخلص سكان قبائل جنزور والماية والمنصورة والمنشير

والتجيبيـين والحشان والعمروس وغيرها من سلطان الفرسان .

وعلم مولاى الحسن بهذه التطورات الفجائية الاخيرة فى موقف الاراضى الطرابلسية تجاه عرشه وامتداد نفوذ سلطان خير الدين برباروسا وزوال سلطان الحفصيين ، لذلك جهز جيشا فيه اخلص جنوده واكثرهم شجاعة وقاد الجيش بنفسه فى اواخر شهر يناير من سنة ١٥٣٢م لمحاصرة تاجوراء والقرى الخاضعة لخير الدين ، وقد تأكد مولاى الحسن من وعد المسيحيين له بالمساعدة بالمدفعية والعتاد والرجال فى معاهدة الصداقة وحسن الجوار،واسرع مولاى الحسن الى طرابلس قبل ان يحل فصـل الربيع ويكون فى استطاعة خير الدين برباروسا امداد تاجوراء بالسفن والـرجال .

وكان قد انضم الى جيش خير الدين كرمان سلك تاجوراء عدد كبير من التونسيين الخارجين عن طاعة مولاى الحسن والناقمين عليه لقتلـه لاخوته وتحالفـه مع المسيحيين .

وقد وطد هؤلاء انفسهم على القتـال حتى الموت خوفا من ان ينزل بهم عقاب مولاى الحسن الصارم اذا ما تغلب عليهم ووقعوا فى قبضـة يـديه .

زحف مولاى الحسن على طرابلس وحاصر جيش خير الدين

فى ثلاث مواقع : فى تاجوراء وعند البرج القائم على الميناء وفى زواغة . ثم بعث الى الوالى المسيحى فى طرابلس بواسطة الكبتن شيكالا (CAPT. CICALA) الذى يعمل فى الجيش التونسى يطلب نجدة ومدافع واسلحة انجازا للوعد ، ولكن لم تكن للوعود قيمـة لان القائد العسكرى لمنظمة فرسان القديس يوحنا توجس خيفة من ان يكون فى الامر خديعة وان يستعمل مولاى الحسن هذه الاسلحة ضدهم ، وابى ان يسلم المدافع والعتاد الموعود بـه الى ملك مسلم ليحارب به المسلمين اخوانه وبنى عمومته فى صالحهم ولخالص صداقتهم وحبا فى حسن جوارهم .

وبعث القائد العسكرى لمولاى الحسن يعتذر ويقول ان ما لديه من الاسلحة والمدافع والدخيرة هو فى حدود ما يحتاج اليه القصر للدفاع عنه ، وليـس لديه زيادة عن الضرورى ، وانه ينتظر وصول الاشياء الموعود بها من مالطة بين يوم وآخر وعاد فكرر وعده بان يـرسل الى مالطة ويستعجل طلـب النجدات الى مولاى الحسن. وارسل مولاى الحسن سفيره الى مالطة للاتصال بالمعلم الاعظم لمنظمة فرسان القديس يوحنا وللتفاهم حول مده بالسلاح والعتاد ، كما بعث مولاى الحسن قائده المسيحى الكبتن شيكالا الى نائب الملك فى صقلية ليبـين

له خطر ابقاء خير الدين فى تاجوراء وضرورة التظافر معه على طرده من هذه الاراضى منذرا اياه بما سيلحق صقلية من اذى اذا ما انتصر خير الدين باربا روسا عليه ووضع يده على تونس.

درس المعلم الاعظم طلبات مولاى الحسن وخاف من انقلاب عليه اذا ما منع عنه السلاح الذى وعده به فى السابق ، ولم يجد بدا من امداده ببعض السفن واقلعت هذه السفن من مالطة بقيادة الاب بوتيجيلا (BOTTIGELLA) ومعه ستون فارسا مسيحيا وبعض المشاة ومدافع وذخيرة .

واستلم خير الدين كرسان ملك تاجوراء رجالا وعتادا من برباروسا وانضم اليه كثير من البحارة الاتراك وبلغ عدد اسطوله فى تاجوراء خمسة عشر قطعة كبيرة .

بهذا استطاع خير الدين ان يدافع عن تاجوراء ويمنع الاعداء من دخولها رغم الغارات المتكررة التى كان يشنها عليه مولاى الحسن والقائد المسيحى بوتيجيلا .

وشعر المسيحيون ان مولاى الحسن صادق فى عزمه مخلص فى نياته نحوهم فكتب المعلم الاعظم الى نائب الملك فى صقلية يرجوه ان يمده بسفن ورجال ومدافع لاحتلال تاجوراء والقضاء على مملكة خير الدين قبل ان يستفحل امره وتتقوى شوكته

ويطمح من بعد فى مهاجمة طرابلس ومالطة وصقلية ، واكد الى نائب الملك الاسراع بهذه الامدادات حتى يتخذ العدو لطرد العدو ويستخدم المسلم لمقاتلة المسلم . ووعد نائب الملك فى صقلية المعلم الاعظم لمنظمة الفرسان بان ينجز طلباته ، ولكن لم تصل هذه الامدادات على الرغم من الوعود والالحاح .

وخرج خير الدين باربا روسا والحصار قائم على تاجوراء فى اسطول كبير ومعه مولاى رشيد بن مولاى محمد الحفصى ونزل باسفاقس من اعمال تونس واحتلها وكان ذلك فى شهر ابريل .

وعندما سمع مولاى الحسن بحملة باربا روسا هذه رفع الحصار عن تاجوراء وذهب الى اسفاقس الى مقابلة برباروسا هناك ، وباءت هذه الحملة بالوبال والخسران على مولاى الحسن وعلى المسيحيين ، واشتد على اثر هذه الهزيمة خوف النصارى من تقدم خير الدين كرمان ملك تاجوراء الى طرابلس واحتلالها بعد ان بقى جيشهم وحده فى الميدان وقد فقد الكثير فى الهجوم على تاجوراء ، ولذلك اخذت تنتاب المسيحيين حمى بناء الاستحكامات والابراج والقصر ، وبدأت من جديد المحاولات للحصول على المال اللازم لذلك ، المال الذى ليس لديهم منه شىء .

وفى ربيع سنة ١٥٣٤ دعا السلطان الى الاستانة خير الدين

بربا روسا وولاه قيادة الاسطول العثمانى كله ، فزاد خوف الفرسان ازديادا كبيرا وخرج خير الدين بالاسطول العثمانى من الدردانيل واتجه نحو سواحل ايطاليا الجنوبية فاسر منها الرجال والنساء واحرق القرى والمدن ، وهذه الاساليب التى نسميها بلغة اليوم « الاساليب الوحشية » كانت فى جدول اعمال كل قائد حربى يريد ان يجعل من اسمه اداة للتخويف والارهاب ، وكانت وسيلة من وسائل التغلب على العدو وانزال الخسائر به ، ولم تكن هذه الاعمال من طرف المسلمين فقط بل كانت من طرف المسلمين تارة ومن طرف المسيحيين تارة اخرى . اتجه خير الدين بربا روسا بعد نزوله على صقلية ، الى تونس واحتلها وفر مولاى الحسن منها .

وقسم بربا روسا جيشه الى قسمين للاستيلاء الكامل على تونس ولاخضاع كل ممتلكات مولاى الحسن ووضع باربا روسا الجيش المكلف بالزحف على الجهات الواقعة شرق تونس تحت قيادة حسن آغا ، واتجه هذا نحو طرابلس وتاجوراء ، وخاف فرسان القديس يوحنا فى طرابلس من تقدم حسن آغا وتغلبه على مقاومة حاميتهم

ولم يدم استيلاء بربا روسا طويلا على تونس بل تراجع بعد

ان انتصر عليه جيش شارل الخامس فى يوليه سنة ١٥٣٥ م ورجع مولاى الحسن الى ملكه وابقى الامبراطور فى حلق الوادي الف جندى اسبانى واشترط على الملك ان يكون مساعدا وحليفا للفرسان فى طرابلس وان يقدم اليهم كل ما يحتاجون اليه من رجال وعتاد اذا ما طلبوه ذلك .

كان من عادة المعلم الاعظم لمنظمة فرسان القديس يوحنا ارسال وال من طرفه لادارة شئون طرابلس ، يختار هذا الوالى من بين الذين لهم اقدمية العمل فى الجيش واسبقية الالتحاق بالمنظمة وكان يعين الى جانب الوالى قائد عسكرى سهمته الجيش والدفاع وملحق سالى لادارة الدخل والصرف والاشراف على الجمارك وغير ذلك .

وكان يرابط فى القصر عادة وفى الاحوال العادية خمسون فارسا ومائتا جندى من بينهم اثنا عشر من رجال المدفعية ، ويساعد المسيحيين خمسون عربيا بين فرسان ومشاة .

هذا وتعطى لكل وال تعليمات يعمل بمقتضاها وتتلخص هذه فى ما يلى :

١) - عدم تسليف اى قطعة من قطعات المدفعية او اخراجها من القصر .

٢) ـ اعطاء مرتبات الجنود كل اربعة اشهر حتى لا تحدث قلاقل بين الجنود

٣) ـ عدم السماح لاى سورى (عربى مسلم) بالدخول الى القصر قبل ان ينزع سلاحه وينزل من فرسه .

٤) ـ عدم السماح باقامة الاسواق العامة الا خارج المدينة ووراء الخنادق خوفا من ان يتحين العرب فرصة اقامة الاسواق العامة داخل المدينة ومحاولة الهجوم عليها وعلى قصرها والثورة على فرسان القديس يوحنا .

جاءت سنة ١٥٣٦ م تنذر فرسان القديس يوحنا فى طرابلس بويلات كبيرة وحروبات طاحنة ، وليس لدى الفرسان من القوة ما تمكنهم من رد جيش مسلح قوى وليست الاسوار والقلاع بقادرة على مقاومة هجوم مسلح منظم ، وليس بين يدى الوالى من الفرسان والمشاة والمدافع ما يستطيع به ان يهاجم تاجوراء التى غدت شوكة فى العين وقد كثر فيها رجال خير الدين واعوانه من عرب واتراك ومن الذين فروا من تونس والذين دعاهم نفير الحرب من دواخل القطر الى الحرب المقدسة التى توشك ان تعلن . جاء خير الدين كرسان الى الى طربلس بعد المعارك التى جرت فى تونس لرفع نفوذ شارل

الخامس منهـا ولمقاتلة مولاى الحسن حليفه وصديقه الامين .

وفى يد خير الدين كرمان توصية من برباروسا الى سكان تاجوراء وضواحـى طـرابلس وقبائلها يامرهم فيها بطاعته ومساعدته .

كان خير الدين كرمان رجلا عظيما كبير القلب شجاعا طموحا فى بسط سلطته ونفوذه وتدعيم ملكه وسلطانه ، واكتسب اثناء اقامته فى تاجوراء كثيرا من الاصدقاء والاتباع وانضمت اليه القبائل الطرابلسية ودفعت اليه خراج اراضيها واشجـارها وحيواناتها وتجارتهـا .

وضاق الخناق على الفرسان فى طرابلس اثـر مجىء خير الدين الى تاجوراء . وصاروا محاصرين محاصرة شديدة لا يستطيعون حتى فتـح ابواب المدينـة عليهم لاشتراء ما يلـزمهـم من مؤن اما قوات خيرالدين فكانت منتشرة فى جميع ضواحى طرابلس وقد بنى خير الدين قلعة على بعد ميل واحدمن اسوار المدينة وكانت هذه القلعة تعرف بقلعة القائد (١) ونصب عليها المدافع وكان رصاصها يصل قريبا من الاسوار ويرابط فى القلعة عادة ستون جنديا من الاتراك وبعض الفرسان ، وقد اتخذت هذه القلعة لغرض المحاصرة الاقتصادية والتضييق على الفرسـان وحتى لا تترك

---

(١) كانت تقع هذه القلعة فى الجهة المسماة اليـوم الظهـرة .

لهم فرصة للمتاجرة واشتراء مـا يحتـاجون اليـه مـن المنشيـة والضواحى الاخرى .

وكانت هـذه هى الخطة الاولى لتمهيد الطريق امام جنوده وفرسانه لاحتلال طـرابلس ، اما الخطوة الثانية التى قام بهـا خير الدين هى التقدم للاحتـلال الفعلى .

دعا هذا القائد التركى جنوده ورجـاله واعـوانه من تـاجوراء والماية وجنزور للانقضاض على طرابلس ، وجاءه المتطوعون العرب افواجا افواجا ، ورابط هذا الجيـش عند قلعة القائد (بالظـهرة)

وتقـدم الجيش نحو الاسوار ومعـه حملة السلالم واختلطت اصوات الطبول باصوات المدافع والبنادق وارتفعت اصوات الجيوش والخيـول وزادت قعقعة السلاح وضربات المدفعيـة ووضعـت السلالم على الاسوار .

وحمـى وطيـس الحرب .....

جثث ترمى من فوق الاسوار ، رؤوس تتطاير ، صياح ذعر تكبيـر وتهليل .

وقد خارت قوى فرسان القـديس يوحنا امام هذا الهجـوم العنيـف المنظم وظنوا ان الساعة قـد حـانت وليس امامهم الا الموت او الاسر ـ وكادوا يرفعـون الاعلام البيضـاء اعلانا

بالاستسلام ....إلا ان جيوش خير الدين بدأت تترك مواقعها وترتد الى الوراء تاركة وراءها السلاح وجثث الموتى بسبب انتشار خبر بين الجنود مفاده ان خيرالدين قد مات

وهكذا ارتدت الجيوش الى قلعة القائد بالظهرة وتاجوراء .

واراد الله ان لا تكون هذه الحملة هى القاضية

كان لهذه الحملة رد فعل من طرف المسيحيين الذين عزموا على الانتقام واشعال نار الحرب من جديد على جيش خير الدين المتراجع ، وتسلم الوالى في طرابلس اموالا ورجالا وعتادا من مالطة ، وبلغ عدد جيشه ۷۰۰ رجل الا ان جيش خير الدين كان يكثره عددا ، ولذلك طلب الوالى المسيحى مساعدة من عرب المنشية حلفائه القداسي فجاؤوه افواجا رجالا وركبانا وملاؤوا الساحات والميادين ، جاءوا ليحاربوا اخوانهم فى الدين والجنس نقابل اجور صغيرة يتقاضونها .

وخاف الوالى المسيحى من انقلابهم عليه وانضمامهم الى صفوف خير الدين بعد نقدهم وتسليحهم ، فطلب منهم رهائن ، وقدموا اليه ابناءهم وآباءهم ضمانا لاخلاصهم له وعربونا على اشتراكهم معه .

وتسلم هؤلاء العرب راتب خمسة ايام ووعدهم الوالى بان يدفع

اليهم مثله كلما انقضت خمسة ايام اخرى الى ان تنتهى المعارك ويقضى على جيش تاجوراء .

ولكن التاريخ لا يبين لنا كيف ولماذا انضم هؤلاء العرب عرب المنشية الى صفوف فرسان القديس يوحنا ، وقد نجد من طرفنا لهم مبررا لو ان الحرب بين جيش خير الدين وفرسان القديس يوحنا كانت حروب مبادىء ومثل عليا لا حروبا تتسم بالطابع الصليبى المحض وترمى الى القضاء على دين محمد فى هذه البلاد ، ولست بكلامى هذا متعصبا لدين معين ضد آخر فلكل الاديان حرمتها وقدسيتها ما دامت تدعو لخير البشرية ولا تتخذ أداة للقتل والتشريد ونشر البغضاء وقد يكون الدافع لعرب المنشية فى اشتراكهم مع فرسان القديس يوحنا ضد اخوانهم العرب ، هو دافع الفقر والحاجة .

ولا شك ان هؤلاء المساكين بوجودهم قرب الاسوار ، فقدوا الشىء الكثير من خيراتهم وضاعت بساتينهم واشجارها واستحال عليهم التعامل مع المدينة وتصريف منتوجاتهم فيها بسبب القلاقل والفتن والهجوم والرد والتقدم والتقهقر طوال هذه المدة التى بقى فيها المسيحيون داخل اسوار المدينة .

وقد نقول ان الحاجة والحاجة ام المصائب ، هى التى دفعتهم

لمحاربة اخوانهم وذويهم . الا اننا نجد اشارة اخرى فى التاريخ تشعرنا بان سكان المنشية عفا الله عنهم لم يكونوا فى حاجة الى لباس وكساء كما قد يتوقع ، فقد جاء فى مذكرات الاب بوسيو (Bosio) انهم دخلوا الى الاسواق واشتروا قلانس حمراء تونسية (طواقى) وبعض آلات الطرب بعد ان دفعت لهم مرتبات خمسة ايام .

ولا شك ان الجائع العريان لا يفكر فى اشتراء آلات الطرب ولا «الطواقى» الحمراء قبل ان يفكر فى اشتراء مؤونة بيته وكساء عائلته .

بلغ خبر تحالف عرب المنشية مع المسيحيين فى طرابلس الى خير الدين كرمان فأخذ يستعد لمقابله العدو .

وانتظم جيش الفرسان المكون من العرب ورجال القديس يوحنا واتجه نحو قلعة القائد بالظهرة ، وتقدم ايضا جيش خير الدين ورابط فى قبيلة ابى دبوس التى تبعد عن المدينة بنحو ثلاثة اميال .

اما فى القلعة فكان يرابط بها ستون جنديا من الاتراك وامدهم القائد التركى بعشرين آخرين .

وتقدم عرب المنشية نحو القلعة وصوبوا نحوها فوهات ثلاث مدافع ، ولم

يتقدم خير الدين لابعاد خطر المسيحيين عنهم ، ولم يتحرك بالجيش من قبيلة ابي دبوس. وشعر المحاصرون بالقلعة بمداهمة فرسان القديس يوحنا وعرفوا انه ليس فى استطاعة خير الدين ان يرفع عنهم الحصار ، ولذلك رفعوا الاعلام البيضاء ، بعد ان شعروا بان القلعة لم تعد تحميهم من ضربات المدافع ، وعرضوا طلب الامان شرطا لتسليمهم ولكن الفرسان رفضوا شرط تحريرهم من الاسر بعد التسليم وانذروهم بالقتل بحد السيف اذا لم يستسلموا ، ولهذا عزم المحاصرون على الموت فى ميدان الشرف وقرروا الدفاع حتى اخر قطرة من دمائهم .

ثم تقدم المسيحيون نحو القلعة ووضعوا تحتها المفرقعات فنسفت نسفا وتناثرت اشلاء من فيها ومن نجا من الموت قتل قتلا فظيعا بحد السيف .

وعلى أثر هذا انسحب خير الدين من قبيلة ابى دبوس الى تاجوراء وتقدم العرب المرتزقة الى هذه القبيلة ونهبوها وسبوها واضرموا فيها النار ورجعوا بالغنائم الى طرابلس فنقدهم الوالى جوائز وسلمهم الرهائن .

ولم يظهر فى تاريخ طرابلس اسم خير الدين بعد هذه هذه المعركة ، ويعتقد بعض المؤرخين انه اصيب فى هذه

المعركة ومات ويعتقد آخرون انه اشترك فى حروب دالماسيا (البلقان) ومات هناك .

وجاء بدلا من خير الدين الى تاجوراء سنة ١٥٣٩ ، مراد آغا ولكن لم يظهر اسم هذا القائد فى تاريخ طرابلس الا فى سنة ١٥٤٣ م.

الفصل السابع

الغزو التركى

ذكر ابن غلبون فى كتابه « التذكار » ان سبب مجىء مراد اغا الى هذه الديار كان بطلب من مشائخ ورجالات تاجوراء ، وقال انهم سافروا الى القسطنطينية وطلبوا نجدة من السلطان لطرد العدو من بلادهم » ، وقال ابن غلبون ايضا ان عرب تاجوراء لا يعرفون اللغة التركية وان مراد آغا قد ترجم بينهم وبين السلطان . وان ما رواه ابن غلبون فى كتابه يحتاج الى شيء من التدقيق قبل الاخذ بصحته ويظهر لنا ان هذا المؤرخ المصراتى الطرابلسى لم يكن مطلعا على هذا الدور من تاريخ طرابلس اطلاعا كبيرا وهذا ما يجعلنا نشك فى صحة ما رواه .

واننا لا نعتقد ان عرب تاجوراء كانوا لا يفهمون اللغة التركية ، ذلك لان الاتراك نزلوا بهذه الارض قبل مجىء

مراد آغا باكثر من ربع قرن وان الجالية التركية بتاجوراء في ايام خير الدين كرسان كانت قوية وكبيرة ، ولم يكن هناك ما يمنع المصاهرة بين الاتراك والعرب فتزوج الضباط والجنود الاتراك بنساء عربيات ، وهذا ولا شك قد نشر اللغة التركية في تاجوراء ، اضف الى ذلك ان لغة رجال السلطات سهلة الانتشار والتعلم و ليست لدينا معلومات واسعة واخبار يقينية عن حياة مراد آغا وكل ما يمكننا ان نؤكده هو انه ولد في راقوسا (RAGUSA) بايطاليا وانه كان خصيا .

وقد اكد هذا نيكولا دى نيكولى سكرتير السفير الفرنسي لدى البلاط العثماني ، والذى قابل مراد آغا اثناء حصاره لطرابلس وساله عن اصله.

ويقول صاحب كتاب : (NAVIGATIONI ET VIAGGI) انه علم من مصدر صحيح ان مراد آغا وليد راقوسا سباه القراصنة الاتراك في احدى حملاتهم على شواطىء دالماسيا ، ثم بيع في الاستانة بستين ليرة لاحد النخاسين وتولى هذا النخاس تعليمه وتربيته وسماه مرادا وحبب اليه الاسلام وختنه وكان مراد جميل الخلقة حسن الطلعة وسيما جذابا ذكيا فاهداه الى سليمة محظية السلطان سليم الاول .

واحبت سليمة مرادا واسبغت عليه عطفها وحنانها ولكن قوانين السراى لا تسمح ببقاء الذكور مع الحريم ولذلك اجريت لمراد عملية الخصى حتى تتمتع سيدته سليمة بمجالسته فى اكثر الاوقات ، وكانت تكلفه من آن لآن بحمل ما تصنعه بيديها من مآكل وحلوى الى السلطان سليم لتلفت اليه نظره . واحبه السلطان ايضا وشغف به ولاحظ ذكاءه ونباهته .

الا ان هذا الحب البرىء والعطف والحنان بين سليمة ومراد قد تحول الى حب وهيام ، الى حب لا طائل من ورائه وكثيرا ما احترقت سليمة حبا بين ذراعى مراد الفاترتين وهى تعلم أن حبها لا يمكن ان يتعدى الحب الافلاطونى .

ومات السلطان سليم الاول وانتقلت سليمة مع من انتقل من المحظيات الى سراى آخر ومعها ذهبها وجواهرها ولاليها وماتت سليمة ايضا واورثت مرادا معظم مخلفاتها الثمينة واكتسب بعدها حريته الشخصية .

سئم مراد حياة السراى وخدمة الملوك والمحظيات ، وقرر دخول الجيش ، فالتحق بابراهيم باشا فى حملته على بلاد فارس ، واشتهر مراد فى هذه المعارك وذاع صيته بين

القواد الاتراك ومنح لقب آغا ، ثم التحق بخير الدين باربا روسا الذى اسند اليه قيادة سفينة كبيرة .

واننا لانؤكد صحة هذه الاخبار لاننا لا نجد مصادر اخرى تثبتها لنا او تلقى بصيصا من النور على حياة هذه الشخصية الفذة فى تاريخ طرابلس ، ولكننا نجد ان مرادا انضم الى باربا روسا سنة ١٥٣٨م وانه كان ساعده الايمن ، وهو الذى بعثه الى تاجوراء ليستانف ما بدأه خير الدين كرسان ويتراس الغزوات على طرابلس .

ومن الجدير بالذكر ان بربا روسا كان يثق ثقة عمياء فى مراد آغا ويعتمد عليه اعتمادا كبيرا فى ادارة الحرب فى افريقيا والبحر الابيض المتوسط .

وقد امده وهو فى تاجوراء بالسفن والرجال والعتاد الحربى .

ولم يخل زمن مراد آغا فى بادىء امره ، من مناوشات واستطلاعات وغزوات صغيرة على المسيحيين فى البر والبحر الغرض منها اظهار وجوده وجعل اسمه مقرونا بالاعمال الحربية حتى لا يجد الاعداء فرصة واسعة للاستجماع والتكتل .

وجاءت سنة ١٥٤٠ لاتنذر الفرسان فى طرابلس بسوء لان

السلطان سليمان عقد مع دويلات الامبراطورية المقدسة هدنة وعلى الرغم من هذا فان المسيحين فى طرابلس وان كانوا لايخافون بعد هذه المدنة هجوما كبيرا من قبل الاسطول والجيش التركى الا ان المعارك لم تتوقف فى هذه السنة وان امن الفرسان فى طرابلس الاتراك الا انهم لم يأمنوا شر العرب الذين باتوا ينتظرون وينتظرون ، ينتظرون الرجوع الى بيوتهم واوكارهم وقد صاروا مشردين تائهين فى كل نواحى القطر.

كان عند الوالى المسيحى رهائن من قبائل الماية الواقعة غرب قرية جنزور والتى تبعد عن طرابلس بثلاثين كيلومترا تقريبا وخضعت الماية قبل هذا التاريخ لفرسان القديس يوحنا ودفع سكانها الجزية لهم كما كانت تدفع آنئذ كل من جنزور والمنشية والرابطة (١) وصبراتة وفر رهائن الماية الى قبائلهم واختفوا عند اقاربهم وذويهم

خاف الوالى من انتقاض سكان الماية عليه فبعث اليهم يطلب

---

(١) الظاهر ان الرابطة هي المسماة «الزاوية» اليوم التى تقع غرب طرابلس والتى تبعد عنها بثلاث واربعين كيلومترا تقريبا ، اما اسم الزاوية فلم يات الا بعد تاسيس زواية الابشات الشهيرة اليوم

ان يسلموه رهائن اخرى ، ولم يكتف سكان الماية برفض هذا الطلب بل قبضوا على الرسل وباعوهم اسارى للاتراك ورفعوا عصا الطاعة ، وكانوا قد اتصلوا قبل هذا بمراد آغا فى تاجوراء واعلنوا تحالفهم معه .

وقد كان سكان المنطقة الغربية عادة متحالفين مع منظمة فرسان القديس يوحنا وخاضعين لنفوذهم ويؤدون اليهم الجزية ، لا حبا فيهم او تقربا منهم وانما لوقوع بلادهم فى طريق الجيوش التونسية الذاهبة الى طرابلس والراجعة منها وهم لا يخافون فرسان مالطة بقدر ما يخافون جيش مولاى الحسن حليف الامبراطور المقدس .

اما المنطقة الشرقية فكانت مستقلة احيانا خاضعة لشيوخها وروسائها ومتحالفة مع مراد أغا مرة اخرى يمدونه بالمال والرجال لاستخلاص ام الوطن من ايدى الاجنبى .

وخاف الوالى المسيحى فى طرابلس استفحال امر هذه القبائل وانتقاضها جميعا عليه خصوصا بعد ضعف نفوذ مولاى الحسن ملك تونس ولذلك وضع الخطط للانتقام من القبائل المنتقضة حتى يرتدع غيرها وتكون درسا لمن تسول له نفسه بعدذلك بالامتناع عن دفع الجزية

وبدأ اولا بقبائل الماية لبيعهم لرسله الى الاتراك وامتناعهم عن دفع الجـزية .

ركب الجنود والفرسان السفن وتحرك هذا الاسطول الصغير المكون من ثمانى قطعات بحـرية من ميناء طرابلس فى آخر يولية سنه ١٥٤٥ وقد اختـار الوالى اكثر فرسانه شجاعة وتدربا على اعمال القتـال .

اما الجيش البرى فخـرج تحت قيادة شيخ المنصورة (قبيلة من قبائل سوق الجمعة) وكان متحالفا مع المسيحيين ومعه مائتان من الفرسان العرب .

كان الوقت ليـلا .

ونزل العسـاكـر والفرسـان من السفـن ووصلت المشـاة وكان الزحف فى سكون الليل وهدوئـه ، دون مـا جلبة او ضوضـاء تحت ستار الظلام لياخذوا عرب قبيلة المايـة على حين غفلة وليضربوا على اياديهم جميعـا .

نزل الجنـد من السفن على بعد ثلاثة اميال تقريبا غربى جنـزور وكان عددهم ثمانى مائة من المشاة و ١١٢ من الفرسان المسيحيين وقبل ان يتم تطويق المدينـة ومحاصرتها دق حامل الطبل دقات عالية تجاوبها ظلام الليـل وسكونه ، وايقظت تلك

الدقات عرب القبيلـة النائمين فى دعة وسكـون تداعب اجفانهم سنة حلوة بعد تعب النهـار .وقام عرب المایة مفزعين بدقات الطبـل فى ظلمات الليل وخرجوا من مساكنهم وخيامهم لينظـروا ما حدث .

ولم ينتظـر سكان القبيلة ما تاتى به الاقدار بل اخذوا طريق البـادية ولاذوا بالفرار بعـد ان عرفوا ان امامهم جيشا لا يقدرون على رده وعدوا قويا لا تعادله قوتهم .

ولم يبق فى القريـة الصغيرة الا العجزة والشيوخ والاطفـال الذين خانتهم قواهم عن اللحاق بذويهم فى جنح الليل

ونزل الفـرسان المهاجمون تحت قيادة شـيخ المنصـورة على المایة المسكينـة نهبـا وسلبا وتخريبـا وتاسيـرا .

واسر فى هذه الليلة من سكان المائة اربع مئـة وخمس وعشرون شخصا . وقد جيء بهم الى مدينة طرابلس مكبلين فى الاغلال

ثم قسمت هذه الغنائم على رجال الجيش بعد ان اخذ الوالى ثمن الغنيمة وهو نصيـب الحكومـة .

وكان لهذه الحملة اثر كبير فى خضوع قبيلة المایة والقبائل الاخرى القريبة منها والذين خافوا ان ينزل بهم مثل هذا الانتقام .

وبعث بعد ذلك سكان المایة الى الوالى المسيحـى فى طرابـلس

بالهدايا والرهائن والجـزية والنقود لافتداء ابنائهم وذويهـم .

وبكوا سوتاهم ليالى واياما وشهدت بلادهم مجزرة بشرية فظيعة :

اجسام سلقاة على الارض مقطعة اربا اربا وبطـون سبـقـورة ونساء ممثل بهـن اشد تمثيـل ، واشجـار مقطوعة محروقة ومغـروسـات مداسة وبيـوت سهدمة فارغـة .

رجع سكان المـاية وقد وجدوا قريتهم الجميلة الخضراء قفـراء ، وقد نهبـت جميع ارزاقهـم وامتعتهـم .

كان الوالى المسيحى سنة ١٥٤٦ الاب جوان لا فاليـت (LA VALLETTE) وهو مؤسس فاليتا عـاصمة مالطة الحالية . وقد وقع هذا القسيس اسيرا عند العرب فى طرابلس ثم اطلـق سـراحه .

وقد اقترح لافاليت وهو وال على طرابلس على مجلس منظمة فرسان القديس يوحنـا ان ينقل مركز المنظمة من مالطة الى طرابلس والاستقرار نهائيا فى هذه الديار .

وكان من بين رجال المنظـمة من عاش فى رودس الجميلة وحضر انهزام المنظمة فيهـا ومغادرتها ولا يزال يذكر ايامه الحلوة الجميلة هنالك ويذكر جمـال الشـرق وسحـره وفتنـه ، وهـا هو انذاك فى مالطة الصخرة الغبراء الجافة ، يهيم على وجهـه

فيها وقد ضاق به المقـام .

ليس فى مالطة ميـدان واسع للتمرين على الحرب والقتال لصعوبة طبيعتها ووعورة اراضيها ، وليس أمام الفرسان من امـل وهـم فى مالطـة فى التوسـع وبسـط النفـوذ بـل ليس هناك أمامهم من طريق ليتخلصوا من مضايقات ومعاكسات نائب الملك فى صقلية وبقائهم تحت رحمته للحصول على حاجياتهم من الحبوب واللحوم والخضروات والفواكه .

نعـم ، ان الانتقـال الى طرابلس قد يريحهم من كل هذه المتاعب ففى طرابلس قرى وبساتين وآبار عذبة المياه ونخيل باسقة وزياتين وخضروات وفواكه رخيصة ، كما ان بطـرابلس ميـادين واسعة واراضى شاسعة ، تصلح ليتمرن فيها الجنود والفرسان على الرمـاية والضـرب والكر والفر .

فى طرابلس كل هذا ولكن دونها شوك القتاد وفى ساحاتها الموت رابض وفى بساتينها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

كان مجلس منظمة الفرسان يعرف ان العرب لن يتركوا لهم مجالا للاستيطان والاقامة فى طرابلس وكانوا يعرفون ايضا ان جيش السلطان سليمان لابد ان يلاحقهـم فى طرابلس بعد ان طردهم من رودس ، وليـس لدى الفرسان جيش برى يعتمـد

عليـه فى الوقـوف امـام الجيش التركى ، اذا ما قدم الى طرابلس وبالنظر الى هذه الحيثيات لم يوافق المجلس على اقتراح الوالى المسيحى الاب جوان لا فاليت (La Vallette) بل تقرر ارسال قسم من رجال المنظمة فى كل سنة حتى يتم انتقال الجيش ورجال المنظمـة الى طرابلس اوتوماتيـكيا ،

وعلى اثر هذا انتابت الفرسان الحمى القديمـة حمى التحصين والبناء والاستجداء من الملـوك والامراء المسيحيين لساعدتهم على تاليـف حامية قويـة وجيش كبيـر لطرد مراد آغا من تاجوراء

وفى اوائل يوليـة من سـنة ١٥٤٦ م مـات خير الدين باربا روسا اميرال الاسطول التركى العظيم ، وقد جاء فى رسالة للسفير البندقى لدى البلاط العثمانى ما ياتى : مات بربا روسا هذه الليلة (اى ٤ يولية ١٥٤٦)) بعد الساعة الثالثة ، وقد خلف للسلطان ثمانمائة اسيـر واورث الوزير الاكبر رستم باشا مأتى اسير وعشرة آلاف ليرة ذهبية ، وعتق قبل موته جميع الاسرى الذين تقل اعمارهم عن خمسة عشر سنة . كما اوصى خير الدين باربا روسا ان يبنى جامع باسمه بمبلغ ثلاثين الف ليرة ذهبية واورث مصطفى ابن اخيه وصهره عشرة آلاف ليرة .

توفى خير الدين باربا روسا ولم تعدم تركيـا بعده من يقود

سفنهـا البحـرية والويتها الى طريق النصـر ومن يحفظ لها كرامتها فى البحر الابيض المتوسط ، فقد ظهر طرغود فى هذا الحـوض يظهر كل يوم صنوفا من المقدرة الحربية والبسـالة النادرة ويكتب صفحـات خالدة له فى تاريخ البحـرية .

ولد طرغود من ابوين فقيرين فى قرية صغيرة من اناضوليـا وكان عصاميا بنى مجـده بيده ، وقد اندفـع فى شبابه الى حياة البحـر بدافـع حب المغـامرات ، اشتغل طرغود اولا ملاحا بسيطا على المجاديف ثم مدفعيا ، واشتهر فى اعماله كلها واظهر تفوقا ومقدرة ، ثم ابتدا حيـاته القرصنية فى البحار الشرقية من البحر الابيض المتوسط باعثا الرعب فى سفن البندقيـة فى بحر الارخبيـل ، وارتفع بشجـاعته الى مراتب القواد النادرين وعلم به خير الدين برباروسـا قبل موتـه فضمه اليه ومن ذلك الوقت صار طرغود الساعد الايمن لخيرالدين .

كان طرغود يهاجم سواحل ايطاليـا وكورسيكا وسردنيا اذا لم يجد فى البحـر ما يهاجم وما ياسر وما يغنم ولا يرجع الى قواعده الا بعد ان تكون سفنه مثقلـة بالاسرى والغنائم .

وسقط طرغود فى احدى غزواته على جزيرة كورسيكا فى ايدى جانيتينو دوريا (Giannettino Doria) حفيد اندريا

دوريا اميرال اسطول شارل الخامس .

كان هذا حول سنة ١٥٤٠

وسيق طرغود مكبلا امام دوريا الاميرال الصغير فوق سفينة القيادة وكان دوريا لم يبلغ الرابعة والعشرين من عمره

واستصغر طرغود هذا القائد وغضب وحنق على الاقدار التى رمت به فى قبضة هذا الفتى الامرد مكبل الرجلين بالحديد .

ولاحظ دوريا استخفاف طرغود به فامر بضربه بالسياط فضرب ضربا مبرحا واهينت كرامته وربط بالسوارى ، وبقى طرغود فى الاسر اربع سنوات مربوطا فى مجاديف اسطول اندريا دوريا

وكانت حكومة الاستانة تلح على شارل الخامس فى اطلاق سراح طرغود وكان السلطان نفسه والوزير الاكبر مهتمين اهتماما بالغا بامر تخليص طرغود من الاسر .

وجاء الاسطول التركى فى مئة سفينة كبيرة امام سواحل ليقوريا (ايطاليا) ليجبر حكومة جنوة على تسليم طرغود مهددا اياها بالضرب ودك مينائها ومهاجمة سفنها اذا ما امتنعت عن تسليمه .

ولم يكن امام حكومة جنوة الا ان تطلق سراح طرغود

خوفا من استفحال الامر ونزول نقمة العثمانيين . ورجع امير البحر الى سفنه واسطوله ، ولم يزده الاسر والضيم الذى لاقاه الا اصرارا على المضى فى عمله دون هوادة او خوف فقد نزل طرغود ثانية الى البحر وقلبه مفعم بالايمان الصحيح الصادق فى تخليص البلدان الاسلامية من قسوة الدول المسيحية

واستطاع طرغود ان يؤلف اسطولا قوامه ١٤ سفينة غزا بها سواحل نابولى ، ثم طرد الاسبان من سوسة ، والمنستير وسفاقس (من اعمال تونس) واحتلها وكان يسعى الى احتلال المهدية ليجعل منها قاعدة لاعماله البحرية .

فخرج فى فبراير سنة ١٥٥٠ فى ست وثلاثين سفينة واتجه بها نحو المهدية واحتلها دون ما صعوبة بمساعدة سكانها العرب وارسل شارل الخامس قائده البحرى الكبير اندريا دوريا فى ثلاث واربعين سفينة لمطاردة طرغود وكسر شوكته واضعاف قوته وكان طرغود يقضى الشتاء فى جزيرة جربة .

وتظافر المسيحيون على طرغود فجاء جوانى دى فيقا نائب ملك صقلية الى المهدية فى ٢٦ يونية ١٥٥٠ وضرب عليها الحصار فخرج طرغود منها الى جربة واستقر بها .

ودعا شارل الخامس امير البحر اندريا دوريا الى استئناف

مطاردة طرغود وجاء اندريا دوريا فى مارس سنة ١٥٥١ وكبس اسطول طرغود فى قنال القنطرة (جربة) ولم يكن طرغود مستعدا للحرب ، فجمع رجاله واستعان بسكان الجزيرة واطلق نيران مدافعه على اسطول العدو الغازى وبنى فى الليل قلعه صغيرة فى راس الجزيرة ونصب عليها المدافع واخذ يصلى اسطول دوريا بقنابل مدافعه .

ووجد الاميرال دوريا نفسه فى خطر داهم فبعث الى نائب ملك نابولى يطلب منه ان يرسل اليه ما تبقى عنده من الاسطول والجنود والعتاد ودعا نائب ملك صقلية ان يضم اسطوله اليه واجاب جميعهم طلب الاميرال واسرعوا باساطيلهم ورجالهم وقواهم ليساعدوا اسطول مليكهم شارل الخامس .

كان فى معية نائب ملك صقلية ، ابو بكر ابن مولاى الحسن ملك تونس اتى به نائب الملك ليستخدم نفوذه السياسى على سكان جربة فيطيعوه ويسلموا له طرغود .

كان طرغود عظيما حقا فقد كان يتتبع حركات اسطول اندريا دوريا وكان واقفا على جميع اسراره ، وكان ينتظر ان يقوم دوريا بحملة قوية عليه فى الجزيرة فلجأ اسد البحر الى حيلة تظهر جليا براعته ومقدرته الفائقة فى الشئون الحربية

حميما وشجاعا قويا ، فلم ترد الى تاجوراء امدادات بالسفن والرجال كما كانت ترد ايام برباروسا وفى سنة ١٠٤٩ كاد مراد اغا ان يقع اسيرا فى ايدى الفرسان ، وقصة ذلك ان مرادا جاء فى كوكبة من الفرسان ليحضر حفلة ختان فى بيت صديقه عبد القادر بن شوشانه فى المنشية .

وسمع المسيحيون بمقدم مراد آغا الى المنشية فهجموا بخيلهم ورجلهم على قبيلة ابن شوشانة وانقض الفرسان على مراد فتعرض عبد القادر بن شوشانة ورجاله طريق الفرسان ومكنوا مرادا من الفرار على فرسه العربى ، اما ابن شوشانة وصديقه احمد جوهرة فوقعا اسرين عند المسيحيين .

وفكر الفرسان فى اكتساب ابن شوشانة الى جانبهم لما له من نفوذ على سكان القرى فاطلقوا سراحه مع صديقه احمد بن جوهرة بعد ان اقسما الايمان ان لا يرفعا السلاح ضدهم وان يتعاونا معهم بالاستعانة مع شيخ المنصورة وعرب المنشية حلفاء المسيحيين القداسى للقضاء على دولة مراد آغا فى تاجوراء

الا ان عبد القادر بن شوشانة تعاقد سرا ، بعد ان اطلق سراحه ، مع مراد آغا على مقاتلة الفرسان .

وبلغ هذا الخبر مسامع الوالى المسيحى فالقى القبض على

حيما وشجاعا قويا ، فلم ترد الى تاجوراء امدادات بالسفن والرجال كما كانت ترد ايام بربا روسا وفى سنة ١٠٤٩ كاد مراد اغا ان يقع اسيرا فى ايدى الفرسان ، وقصة ذلك ان مرادا جاء فى كوكبة من الفرسان ليحضر حفلة ختان فى بيت صديقه عبد القادر بن شوشانه فى المنشية .

وسمع المسيحيون بمقدم مراد آغا الى المنشية فهجموا بخيلهم ورجلهم على قبيلة ابن شوشانة وانقض الفرسان على مراد فتعرض عبد القادر بن شوشانة ورجاله طريق الفرسان ومكنوا مرادا من الفرار على فرسه العربى ، اما ابن شوشانة وصديقه احمد جوهرة فوقعا اسرين عند المسيحيين .

وفكر الفرسان فى اكتساب ابن شوشانة الى جانبهم لما له من نفوذ على سكان القرى فاطلقوا سراحه مع صديقه احمد بن جوهرة بعد ان اقسما الايمان ان لا يرفعا السلاح ضدهم وان يتعاونا معهم بالاستعانة مع شيخ المنصورة وعرب المنشية حلفاء المسيحيين القدامى للقضاء على دولة مراد آغا فى تاجوراء

الا ان عبد القادر بن شوشانة تعاقدسرا ، بعد ان اطلق سراحه ، مع مراد آغا على مقاتلة المفرسان .

وبلغ هذا الخبر مسامع الوالى المسيحى فالقى القبض على

ابن شوشانة وصديقه احمد بن جوهرةومعهما تسعة من رؤساء وعشائر الضواحى ، وارسلوا الى مالطة لمحاكمتهم هناك ، وحيث لم تثبت عليهم التهـم ابرئت ساحتهم ورجعوا الى طرابلس .

وصل الى طرابلس فى ٢٣ مايو ١٥٥١ الوالى الجديد فالييـر (VALLERS) وهو يعرف ان امامه معركة فاصلة وان الاسطول التـركى قادم الى مالطة وطرابلس لتحريرها وطردهـم منهـا ، فاصيـب الوالى الجديد هو ايضا بحمى تقوية حصون وابراج واسوار مدينة طرابلس كما اصيـب بها من كان قبلـه .

وطلب هذا الوالى من رئيس منظمة فرسان القديس يوحنـا ان يمده باسلحه وفرسان وجنود ، على ان المنظمة لم تكن فى ذلك الوقت قادرة على تلبيـة طلبـات الوالى فى طرابلس والقيام باعمال تحصينات جدية فى مدينة طرابلس او تجنيد جيش مسلح عـــديد .

هذا وقدوم الاسطول التركى معناه زوال حكم الفرسان نهائيـا من طرابلس عـلى انه قد يكون فى ذلك ايضـا اخروجهم من مالطـة كما اخرجوا من قبل من رودس الجميلـة .

ولم يكن بين المسيحيـين فى اوروبا رابطة سياسية عسكرية

تجمعهم امام هذا الخطر الاسلامى الداهم ، بل كان الخلاف مستحكما بين الملوك والامراء والحروب قائمة قاعدة بينهم ، وعبثا ما حاول رئيس منظمة فرسان القديس يوحنا لاقناع ملوك اوربا بضرورة الدفاع عن طرابلس ومالطة مبينا لهم جميعا ما ينال المسيحية فى عقر دارها اذا ما تغلب الاتراك واحتلوا طرابلس واستقروا على سواحل الشمال الافريقى وما ينال اوربا الجنوبية على الخصوص ، الا ان صيحات رئيس المنظمة كانت كصيحات البائس ، ونداءات الغريق المحتضر ، فلم ينجده احد بالسلاح والعتاد والرجال والمال .

والواقع ان المنظمة كانت معترفة ، منذ تسلمها طرابلس ، بعجزها عن الدفاع عن اسوار وقلاع هذه المدينة ، وقد اعتمدت المنظمة على وعود ملوك اوربا وامرائها ، وعلى اثر هذه الخيبة فى الحصول على امدادات من الخارج ، تقدمت المنظمة داعيةالى التجنيد فى كل من صقلية وكالابريا باسم الدفاع عن دين المسيح

وعلى الرغم من اعطاء الصبغة الدينية الى حركات التجنيد هذه فانه لم يتقدم الاعدد قليل من الرجال من كل من صقلية وكالابريا

ولا يفوتنا ان نقول ان الجندى الكالابرى اشتهر بالجبن والدناءة ، ولم يكن رئيس المنظمة راضيا على حركات

التجنيد فى كالابريا .

جاء الاسطول التركى المكون من مئة وخمسين سفينة عليها اثنا عشر الف جندى .من الانكشارية وخمسة آلاف من رجال الكوماندوس وارباب الصنائع وست مئة فارس وكان يقود هذا الاسطول الضخم القائد التركى الكبير سنان باشا ومعه طرغود باشا الذى كان قد ذهب من قبل الى استنبول ليستحث السلطان على ارسال مثل هذا الاسطول وغزو بلاد النصارى به وطردهم من ديار المسلمين .

بعث القائد التركى سنان باشا الى نائب الملك فى صقلية دى فيقا يطلب منه ان يتخلى عن المهدية .

وتسلم سنان ردا جافا من دى فيقا فتقدم الى احتلال قاطانيا (صقلية) ثم تركها وذهب الى اوغوستا بصقلية ايضا فاحتلها واضرم فيها النار .

وظهر الاسطول التركى امام جزيرة مالطة يوم ١٨ يوليه وقد عزم سنان باشا ، بايعاز من طرغود باشا ، على الاستيلاء على قلعة سانت انجلو . حيث يوجد اكبر عدد من الفرسان ، ولكن سنان لاحظ ان الاستيلاء على مالطة سيكلفه وقتا طويلا وقد ينقضى فصل

الصيف ولا يتم له الاستيلاء عليها ، فرفع الحصار عن مالطة واحتل قوزو ونهبها واسر منها سبعة اركبهم السفن واقلع الاسطول التركى من قوزو يوم ٣٠ آلاف بين رجال ونساء لوليو ١٥٥١ م متجها نحو طرابلس .

وصل الى مالطة فى اول اغوستو من السنة نفسها المسيو دارمونت(D'ARAMOUNT) سفير فرنسا لدى البلاط العثمانى ، فى ثلاث سفن كبيرة ، ويصحبه سكرتيره الخاص المسيو نيكولا دى نيكولى الذى كتب مذكرات هامة جدا حول احتلال سنان باشا لطرابلس ، وهذه المذكرات مطبوعة فى البندقية سنة ١٥٧٠ تحت اسم (NAVIGATIONI ET VIAGGI)

وعند نزول السفير الفرنسى الى مالطة دعاه المعلم الاعظم اليه ورجاه ان يذهب الى طرابلس وان يتصل بسنان باشا وان يطلب منه ان لا يستولى على طرابلس لما بين ملك فرنسا والسلطان سليمان من صداقة ومعاهدات .

رسا الاسطول العثمانى امام ميناء طرابلس على بعد ميلين

فقط ونزل سنان باشا الى تاجوراء فى ضيافة مراد آغا ، ثم ارسل سنان عربيا يحمل علما ابيض ورسالة الى الفرسان فى قصر طرابلس يطلب فيها منهم ان يسلموه المدينة واعدا اياهم ان يحفظ لهم رقابهم واموالهم ، وامر سنان باشا بانزال الجيوش والمدافع الى البر بكل سرعة واحتياط وكانت عملية الهبوط الى البر عند راس الهنشير « ساحل سوق الجمعة »

ويقول ابن غلبون فى كتابه التذكار : « فمر اسطول السلطان سليمان بالمدينة المذكورة (يعنى طرابلس) مددا لقلج على باشا اذ كان محاصرا لحلق الواد وبه طرغود باشا وهو قائده فخرج اليهم مراد ومعه اعيان بيعته من اهل تاجوراء فى شينى وطلبوا منه الاعانة فابى عليهم وتعلل بانه لم يؤذن له فيها فهونوا عليه امرها وصغروها بين يديه فاجابهم الى ذلك على شرط ان يعطوه حجة على ان لا يكون عليه درك من السلطان لمخالفته امره وانهم المؤاخذون بذلك فاعطوه بذلك حجة وحاصروها برا وبحرا فاخذوها عنوة وقيل طلب اهلها الامان لانفسهم فاجابهم لذلك وخرجوا .

ورواية ابن غلبون فيها شيء من الشك ، اذ ان ضخامة

الاسطول وكثرة وحداته لا تجعلنا نؤمن بانه جاء ليخلص قلج على فى حلق الوادى والحقيقة ان الاسطول كان مجهزا للاستيلاء على طرابلس والاماكن الاخرى فى الشمال الافريقى التى سبق للمسحيين ان وضعوا ارجلهم فيها ، وان نزول سنان باشا بتاجوراء لم يكن بطلب من مراد آغا ورجال بيعته وانما لطرد القوات المحتلة لقصر ومدينة طرابلس ورفع نفوذهم عن الشمال الافريقى وخوفا من وقوع كارثة جديدة للمسلمين بعد كارثة الاندلس .

والشمال الافريقى كله يدين لسلاطين آل عثمان فى احتفاظه بقوميته ودينه ولولا نشاط السلطان سليمان فى تخليص هذه السواحل من المسيحيين لطغى علينا السيل ولانكر السكان قوميتهم بفعل الاضطهادات والمجازر كما زال ظل العروبة والاسلام من اسبانيا وصقلية ولولا قوة ال عثمان فى هذا الدور وتضلعهم بمسئولية الدفاع عن الدين الاسلامى فى البحر والبر بل والدعوة والفتح باسمه لدرست آثاره وعفت رسومه ولصار هذا الشمال دارا من ديار المسيحيين .

وعندما اقترب سنان باشا من المدينة وبدأ

زحفه عليها اشتد فزع المسيحيين داخل الاسوار وثاروا على الوالى المرشال فالييير الذى لم يقبل الامر الواقع فيسلم المدينة عندما وصلته رسالة سنان باشا بل جمع رجاله واعلمهم مكابرة وعنادا بانه قرر الدفاع حتى الموت وانه قرر ان لا يسلم المدينة الا اذا تسلم امرا من المعلم الاعظم بذلك . وكان الوالى المرشال دى فالير يعتقد ان الاسطول العثمانى لا يطيق البقاء فى عرض البحر خصوصا وان فصل العواصف والزوابع اخذ يقترب وظن ان سنانا لا بد راحل ورافع الحصار اذا ما صمدوا فى وجهه ولم يستسلموا نصب سنان باشا المدافع قرب سيدى الشعاب وزاوية الدهمانى والظهرة وحفرت الخنادق وتقدمت الجيوش نحو الاسوار وكان مع سنان باشا مراد آغا حاكم تاجوراء وطرغود باشا يساعدانه فى ادارة الاعمال الحربية . وتقدم مراد اغا بقواته المؤلفة من العرب والانكشارية .

ولم يكن فى استطاعة الاسطول التركى ان يشترك فى الغزو لان مدفعية برج المندريك كانت قوية شديدة بل اكتفى سنان برفع بعض قطعات المدفعية من الاسطول لاستعمالها فى البر وجاء الى طرابلس السفير الفرنسى داراموِن ومعه سكرتير

دى نيكولا والحصار قائم على طرابلس . ورست السفن الفرنسية فى ميناء تاجوراء الصغير وطلب السفير مقابلة البـــاشا .

فاستقبله سنان بجفاوة وقبل داراسون يد الباشا وكانت عادة تقبيل اليد من بروتوكول السفراء الذين يبعثون الى الدول الشرقية . طلب المسيو داراسون من سنان باشا ان يترك الاستيلاء على طرابلس وان يرفع الحصار عن فرسان القديس يوحنا مذكرا سنان باشا بما يربط بين الامبراطورية العثمانية وبين فرنسا من معاهدات وصداقة ومؤكدا بان مملكة الفرسان تتمتع برعاية كبيرة من ملوك فرنسا .

الا ان سنان باشا اجابه بانه مكلف رسميا من طرف السلطان سليمان باحتلال طرابلس وانه جاء لهذا الغرض وانه لا يجد مفرا من تنفيذ الامر العالى .

وطلب المسيوداراسون ، بعد ان فشل فى اقناع سنان باشا ، بان ياذن له فى الارتحال والذهاب الى الاستانة للاتصال بالسلطان سليمان ، فلم ياذن له سنان بالابتعاد خوفا من ان يصادف السفير نجاحا لعرضه لدى السلطان .

واستلم المسيو داراسون امرا بالبقاء حيث هو وعدم الاتصال

بالفرسان فى طرابلس الا بعد ان يتم له الاستيلاء عليها .

بدات الحملة على طرابلس فعلا من قبل الجيش التركى فى يوم ٩ ، ١٠ ، ١١ من شهر اغسطس ، حيث كانت المدافع تلقى على المدينة والقصر والاسوار بقنابلها ، وتقدم رجال بطريات المدفعية ونصبوا مدافعهم فى نقطة لا تبعد عن القصر باكثر من مئة وخمسين مترا .

عمت الفوضى بين الجنود وسرى الخوف بينهم وحاولوا الهرب الى مالطة بالسفن والحوا على قوادهم فى عقد الصلح مع الاتراك حتى يحفظوا لهم ارواحهم على الاقل . وراى الوالى المسيحى ان خطر الوقوع فى ايدى الاتراك آت لابد منه ، فارسل مندوبين عنه ليتفاوضوا مع سنان باشا على الصلح وتسليم المدينة على شرط ان يحفظ لهم اورواحهم ويسمح لهم بمغادرة طرابلس والذهاب الى مالطة بكل ما عندهم من سلاح ودخيرة ، وظنوا ان سنانا فاعل ذلك وقد سمح لهم به من قبل السلطان سليمان عند طردهم من جزيرة رودس .

ولكن هل سينسى سنان باشا المجازر التى اقامها فرسان القديس يوحنا .

وتجهز الجنود الصقليون والكلابريون وثاروا وسبوا ولعنوا

الاقدار التى رست بهم الى حرب مع الاتراك ، الاتراك الذين كثيرا ما سمعوا عنهم بانهم غيلان آكلة واساد ضارية ومخلوقات غريبة تلتهم اللحوم البشرية التهاما .

بكى هولاء الجنود ايامهم فى اودية صقلية ومرتفعات كالابريا بكوا ايامهم الجميلة وبين اطفالهم ونسائهم .

وماذا امامهم الان سوى الموت الموت الذى زرعوه بايديهم اذا لم يتفضل سنان العظيم فيهب لهم ارواحهم ويرجعهم الى بلدانهم سالمين .

وهذا ما كان من سنان .... فقد اجابهم بانه مستعد ان يهبهم لانفسهم اذا ما تعهدوا له بدفع جميع الخسائر الحربية التى تكبدها جيشه فى هذه الحملة .

فلم يرض فرسان القديس يوحنا بهذا الشرط .

وكيف يقبلون وليس لديهم المال الكافى لتغطية مطالب الباشا وهم الذين كثيرا ما استنجدوا واستنجدوا الملوك المسيحين فلم ينجدوهم وهم الذين قد عجزوا حتى عن دفع رواتب الجنود وتكاليف الحامية .

فلم يكن امتناعهم عن قبول شروط سنان عن ثقة فى فى نصر نهائى او عن عزم على الاستبسال حتى الموت وانما كان

الامتناع لمجرد عدم وجود هذا المال المطلوب .

وزاد خوف الجنود المحاصرين واشتدت ثورتهم بعد ان فشلت عمليات التفاوض مع الاتراك ولم تصل فى هذه المدة من مالطة اية مساعدة او نجدة للفرسان ، وكيف يمكن ان تصل وعرض البحر قد ملأه الاتراك سفينا .

واستمر الزحف والضرب واستمر التقدم نحو القصر والاسوار وكانت القنابل تنفجر فى كل مكان .

ودعا سنان باشا المارشال فالبير والى المدينة للتفاوض معه راسا وابرام معاهدة الصلح ، وجاء المارشال الى سنان باشا فى خيمته يرافقه احد مساعديه ، فعرض سنان على الوالى اما ان يتعهد له بالخسائر الحربية واما ان ياخذ جميع الفرسان اسرى يبيعهم الاسواق فى مقابل الخسائر . واظهر الوالى غلظة وتحرشا فى القول ولم يقبل عرض سنان باشا ، ولذلك امر القائد التركى بتكبيل الوالى ثم بعث برفيقه الى المدينة لينذر الفرسان بالافناء الاجماعى اذا ما توانوا فى فتح الابواب وتسليم المدينة له وحاولوا المقاومة اكثر واعتصموا بالقلاع والاسوار التى غدت لا تحميهم بسبب الخراب الذى حل بها .

كان فى مدينة طرابلس اثناء الحصار مائتا عربى مسلم

متحالفين مع الفرسان ضد اخوانهم ، وعندما شعر هؤلاء بان لا قدرة بعد للفرسان فى المقاومة خرجوا فى الليل على الخيول التى كانت تحت ايديهم قاصدين اخوانهم فى الدواخل او مولاى الحسن ملك تونس حليف فرسان القديس يوحنا .

وسمع الاتراك فى ظلمة الليل دقات حوافر الخيول على الارض فقاموا مسرعين نحوهم واسروا منهم خمسين،اما الباقون فاستطاعوا الفرار الى تونس .

وعلم سنان باشا من الاسرى ان الفرسان يموتون كل ساعة مرات وان لا حول ولا قوة لهم لرد الغزو او المقاومة اكثر وقد دب بينهم الياس.

ولذلك لم يلجأ سنان الى استعمال اللين والدبلوماسية وانما اراد ان ينتظر حتى يتم له النصر ، وبعث مناديا ينادى قرب الاسوار والابواب ان اخرجوا من القصر واتركوا سلاحكم وانتم احرار . وكان هذا النداء كان كل ما ينتظره جنود وفرسان صقلية وكالابريا فلم يستشيروا ولم يصبروا بل فتحوا الابواب ونزلوا الخنادق المحيطة بالاسوار بعد ان القوا اسلحتهم وكان عددهم ست مئة رجل تقريبا ودخل العرب والاتراك مدينة طرابلس وعلى راسهم سنان باشا وطرغود ومراد واحتفل

الجنود والقواد باحتلال طرابلس احتفالا رائعا يوم ١٦ اغسطس ١٥٥١ ، ونصبت السرادقات والمدارج امام خراب القصر ودعا سنان الى هذا الاحتفال المسيو دارمون وسكرتيره وحضر ايضا المارشال فالبير الوالى السابق واشعلت المصابيح ليلا على قطعات الاسطول ابتهاجا بالنصر .

ويقول المسيو نيكولى الذى زار القصر بعيد احتلال الاتراك له انه وجد القصر فى حالة جيدة وانه قد نصبت عليه ست وثلاثون قطعة من المدافع وكثير من الالات الحربية الاخرى . وقال المسيو نيكولى ان المواد الغذائية متوفرة داخل القصر وذكر انه يوجد به آبار جيدة وحنفيات وقد كال اللوم على فرسان القديس يوحنا الذين استسلموا دون ان يكون لهم فى ذلك اى مبرر .

وأبر سنان باشا بوعوده فسمح للفرسان بمغادرة طرابلس على سفن ترفرف عليها الاعلام الفرنسية ، كان ذلك فى اليوم الثامن عشر من اغسطس ، وحيا سنان القافلة المقلعة الى مالطة بطلقات من المدفعية وتوارت وراء الافق فتوارى معها شبح الخوف والظلم فى مدينة طرابلس .

ولم يترك الفرسان اثارا تخلد ذكرهم سوى ما ارتكبوه

من فضائع وما اقاموه من مجازر . واقاموا كنيستهم فى احدى حجرات القصر وسموها باسم القديس ليوناردو (LEONARDO) وقد حولها الاتراك من بعد الى مسجد ، ولا يزال هذا المسجد باقيا فى القصر تحت مراقبة ادارة اوقاف طرابلس الغرب .
وبعد ان تم الاستيلاء وتوطدت اقدام الاتراك على هذا الساحل اقلع سنان باشا من طرابلس بالسفن والجنود بعد ان قلد ولاية طرابلس لمراد آغا لمدة حياته ، وابقى تحت يديه حامية تركية صغيرة .

قال الحشائشي : كنت فى مدينة باريس سنة ١٩٠٠ بمناسبة زيارة معرضها العام ورايت فى خزانة الكتب العمومية مصحف قرآن بخط يد سنان باشا المذكور على اكمل حال من الصحة وحسن الخط ، وياله من مصحف ثمين ، وهذا دليل على كمال هذا البطل العظيم فى خطة القلم والسيف انتهى .
ومن الغريب ان رؤساء منظمة فرسان القديس يوحنا احتفظوا لانفسهم بلقب « السيد الامير على الدومينيون الملكى الطرابلسى الى القرن الثامن عشر .

ولاية مراد آغا

كان اهم حادث وقع اثناء ولاية مراد آغا هى حملة فرسان القديس يوحنا على زوارة وجهزت هذه الغارة لغرض السلب والنهب ، وقد اختيرت زوارة لانها غير محصنة وليس بها حامية من الجنود النظاميين من قبل الاتراك للدفاع عنها ، وزوارة هى آخر البلدان الطرابلسية الساحلية من الجهة الغربية تبعد عن طرابلس ١٢٠ كيلومتر تقريبا وهى نقطة متوسطة بين طرابلس وجزيرة جربة .

وجهز الفرسان لهذه الحملة ستة عشر سفينة كبيرة عليها الفا شخص تقريبا من جنود وفرسان ومدفعيين ورجال البحرية واقلع الاسطول تحت قيادة ليون استروزى (*STROZZI*) يوم ٦ اغوستو ١٥٥٢ وبعد يومين كان الاسطول المسيحي امام زوارة ولكن اضطر ان يبقى فى عرض البحر لاشتداد عواصف البحر وكثرة هياجه وتلاطم امواجه ، واقترب من الساحل فى الليلة الوقعة بين يومى ١٣ و١٤ من شهر اغوسطو ، وكان

مع المسيحيين ثلاثة من الزواريين كانوا اسرى فى مالطة
اتى بهم ليرشدوهم الطريق ، ونزل الغزاة الى سواحل زوارة
يتقدمهم جماعة من المالطيين الذين يعرفون اللغة العربية
معرفة جيدة الا ان نزولهم كان بعيدا عن المدينة بخمسة عشر
ميلا وكان عليهم ان يقطعوا هذه المسافة مشيا على الاقدام
للوصول الى زوارة قبل ان يظهر نور الصباح على الافق
ويستيقظ الناس من سباتهم .

نظم ليون استروزى جيشه واستعد للقتال وبدا الجنود
يزحفون وامامهم الزواريون الثلاثة وقد ربطت ايديهم
ورقابهم بالحبال ومعهم المالطيون وقد لبسوا اللباس
الطرابلسى ، وقبل وصول الجيش المالطى الى زوارة بميلين
تقريبا لاحظ الدليل وجود مخيم وانوار ونيران مشتعلة
فى واد هناك . انه مخيم جنود ، فاسر بذلك الى القائد
ولكنه لم يعبأ بكلام الدليل وظن ان المخيم انما هو مخيم
عرب نازلين هناك وخيل اليه ان الفرصة مواتية للانقضاض
عليهم وتاسيرهم وحملهم فى السلاسل الى مالطة .

ولم ينتظر الجنود المسيحيون امر القائد بل انقضوا على
المدينة وعلى قبائل زوارة فى سكون الليل وهدوئه ينهبون

ويسلبون ويقتلون وياسرون النساء والاطفال والشيوخ بدون رحمة او شفقة وفى لحظات قليلة اسروا خمس مئة شخص وعلم القائد من الاسرى ان مراد آغا مرابط فى واد قرب زوارة جاء اليها ليخضع اهلها الى الاعتراف به فى ٣٦٠٠ جندى بين فرسان ومشاة وانه سوف يتابع رحلته الى جربة .

وامر القائد بالتراجع وركوب السفن وامر بالنفخ فى النفير ليسمع الجيش ويسمع الذين شغلوا بالنهب والسلب ولكن سرعان ما داهمتهم خيول مراد آغا وجيوشه وانقضت عليهم من كل حدب وصوب ، وضاق على المالطيين طريق الفرار فتشتتوا هاربين نحو السواحل تاركين كل ما كانوا قد استولوا عليه من اموال ورقاب يرجون ان يسلموا بانفسهم الى السفن وان ينجوا من الموت الذى بات ينشره بينهم مراد آغا ورجاله والقى فرسان القديس يوحنا بانفسهم الى البحر ليصلوا الى السفن سالمين ومات كثير منهم غرقا قبل الوصول الى المراكب التى كانت قد اقتربت من زوارة ولا تبعد عن الساحل باكثر من نصف ميل .

وهكذا تمت هذه الغزوة المالطية على زوارة بخسائر فادحة واقلع الاسطول من امام زوارة بالبقية الباقية من الجيش

واطلق اشرعته للرياح خوفا من ان ينزل عليهم طرغود فى البحر بعد ان افناهم مراد فى البر ، وعندما بلغ الخبر الى المعلم الاعظم لمنظمة الفرسان قال متأوها : هذه اكبر فاجعة اصابت الفرسان بعد فاجعة رودس .

فى هذه السنة نفسها كان طرغود باشا يجوب مياه البحر الابيض المتوسط يبعث الرعب فى قلب سكان ايطاليا الجنوبية وجزائرها ، فقد غزا فى سنة ١٥٥٢ ريجيو كالابريا ونهبها وجمع منها غنائم كثيرة واسرى عديدين واستولى على سبع سفن كبيرة من سفن اندريا دوريا اميرال الامبراطور المقدس ، وبعد ان حمل هذه الغنائم الى طرابلس سافر فى اغوستو ١٥٥٢ الى القسطنطينية ليقدم الى السلطان سليمان تقريره عن اعماله البحرية وكان طرغود يسعى فى الحصول على ولاية طرابلس لنفسه وقد استاء كثيرا عندما اسند سنان باشا ولاية طرابلس الى مراد آغا واغتنم طرغود فرصة وجوده عند السلطان سليمان ، فحاول اقناعه بان مرادا لم يعد قادرا على فرض السلطة على السكان العرب المتمردين وان شيخوخته لا تساعده على تركيز السلطة العثمانية فى تلك الديار وعلى مطاردة القراصنة المسيحيين فى البحر ، واستطاع

طرغود ان يقنع السلطان فعلا باسناد الولاية اليه وجاء طرغو
فى اواخر مارس ١٥٥٣ م من القسطنطينية وبيده فرمان لتولية
على طرابلس واستقبله مراد آغا والجند والعرب استقبا
رائعا ، وفرح الجنود بتولية طرغود امرهم وهم يعلمو
انه القائد الذى لا يتراجع ولا يهزم وفرح العرب سكان المدين
بمقدم طرغود لانهم بذلك امنوا شر الاعد

وبهذا انتقل مراد آغا الى تاجوراء ليقضى بقية ايامه
عزلة فى البلد التى آوته ونصرته ، وحمل معه الاسرى المسيحيي
الذين ملكهم وامواله الواسعة التى غنمها واراد ان يخلد اسـ
فبنى جامعه العظيم فى تاجوراء واستخدم هؤلاء الاسـر
فى بنائه ووعدهم باطلاق سراحهم عندما يتم بناء المسج
وقد جلب الاعمدة له من لبدة العظمى المدينة الاثـر
الواقعة قرب الخمس ، وابر مراد بوعده للمسيحيين فقد اطل
سراح الاسرى بعد ان تم بناء الجامع .
وجامع مراد آغا مستطيل الشكل طوله من الخارج ٤٢،٦٠
وعرضه ٣٥،٢٠ اما من الداخل فطوله ٣٨،٦٠ متر وعرضه ٢٨،٠
وتستند قبابه على اقواس رفيعه وحادة فى شكل حدوة الفر
مركبة على ٤٨ عمودا

وبجانب هذا الجامع يوجد مبنى صغير مساحة ٥،٤٠×٥،١٥ متر عليه قبة واحدة وفيه دفن مراد آغا بعد ان ادى للمسلمين عامة ولطرابلس خاصة خدمات لا ينساها له التاريخ مدى الأزمان رحمه الله رحمة واسعة . ويرجع الفضل لمراد آغا فى تعمير مدينة طرابلس بالسكان ، فقد كانت عند دخول سنان باشا ومرا د وطرغود خالية تماما من السكان العرب فجلب اليها الفارين منها عند دخول الاسبان وكثيرا من سكان تاجوراء والقرى القريبة من المدينة ، ولهذا يدعى اكثر سكان مدينة طرابلس اليوم ان اصلهم من تاجوراء وقد يكون فى هذا كثير من الصحة . واهتم مراد آغا ببناء البيوت والمساكن للسكان وشجع الناس على تعمير المدينة ، وزراعة الحقول واستثمار الارض ، وبهذا بدأت طرابلس تسترجع ماضيها وثروتها وخيراتها بعد ان قضى عليها الاسبان وفرسان القديس يوحنا مدة ٤١ سنة تقريبا .

اعتمدت فى كتابة هذه الرسالة على المصادر الاتيـة :

١) - التيجانى

٢) - ابن غلبـون التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها
من الاخبـار (القاهرة ١٣٤٩هـ)

٣) - الحشائشى(محمد بن عثمان)جلاء الكرب عن طرابلس الغرب

٤) - عثمان الكعاك الموجز العام لتاريخ الجزائر (سنة ١٣٤٤)

E. ROSSI — **Il dominio degli Spagnoli e dei Cavalieri di Malta in Tripoli.**

S. AURIGEMMA — **I Cavalieri Gerosolimitani a Tripoli** — A. Airoldi, Ed. A. XV.

S. AURIGEMMA — **Il Castello di Tripoli di Barberia** — Riv. Col., 1923, pp. 191-220.

S. AURIGEMMA — **Le fortificazioni di Tripoli** — in « Not. Arch. Min. Col. », II, p. 257.

S. AURIGEMMA — **Murad Agha** — in « Riv. Col. It. », 1930, pp. 853-73.

M. RAVA — **I Cavalieri di Malta a Tripoli** — in « L'Oltremare » giugno 1929, pp. 253-257.

R. BARTOCCINI — **La Moschea di Murad Agha in Tagiura** — in « Architettura ed Arti Dec. », III, 1924.

P. C. BERGNA — **Tripoli dal 1510 al 1850**, Tripoli, 1925, pp. 1-48.

MANFRONI — **Tripoli nella storia Marinara d'Italia**, Padova, 1912.

LEONE AFRICANO — **Viaggi.**

L. CHARLES FERAUD — **Les Annales Tripolitaines**, Tunis, 1927.

الفهرس

صحيفة

يتبع : -

العهد العثمانى الاول فى طرابلس

مطبعة ماجى - طرابلس - ٤ - ١٩٥٢ م